الذي أسهم في إنماء التجارة العالمية وتطورها. ومن تلك العوامل أيضا تطور الملاحة وحركة السفن، وتحديث القوانين التجارية، فكلها أمور أدت إلى انتعاش التجارة العالمية مما ترتب عليه ظهور الحاجة إلى قيام معارض تجارية دولية تتلاءم مع هذا التطور وتستوعب النشاط التجاري الكبير الذي شهده الغرب في نهاية العصور الوسطى.

الفصل الثاني

أهم الأسواق الأوروبية العالمية
في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين

ويشتمل على :

(١) أسواق شامبني : الموقع وأثره على ازدهار الحركة التجارية
(٢) أسواق الفلاندرز "الفلمنكية":الموقع وأثره على ازدهار الحركة التجارية
(٣) الأسواق اللومباردية : الموقع وأثره على ازدهار الحركة التجارية
(٤) دور الدولة والكنيسة في تدعيم الأسواق وصيانة الطرق والمواصلات
(٥) أنواع المتاجر التي تخصصت فيها الأسواق الأوروبية

تعددت الأسواق العالمية في أوروبا العصور الوسطى نتيجة للظروف وللأسباب المختلفة التي عرضناها والتي أدت إلى انتعاش التجارة العالمية، والاتصال بين الشرق والغرب، وحاجة الناس إلى السلع المختلفة سواء من سكان الشرق أم الغرب. لذا خرج المجتمع الأوروبي عن نطاق الأسواق المحلية الداخلية والتي لم تف بحاجة السكان والتزاماتهم بعد أن توسعت مداركهم واحتياجاتهم، وقامت أسواق أخرى لها صفة عالمية ودولية في مراكز أوروبية كثيرة أهمها :

(١) أسواق شامبني : الموقع وأثره على ازدهار الحركة التجارية :

اختلفت الأسواق أو المعارض الكبرى (Fairs) ، عن الأسواق المحلية الصغيرة (Local Markets) بصورة كبيرة، فعلى الرغم من أن البعض يستخدم كلمتي Markets وFairs بدون تمييز بينهما إلا أنه يوجد اختلاف كبير بينهما، ، لأن Markets كانت بمثابة أسواق دائمة، تعقد بصورة دورية لبيع الأشياء الضرورية اللازمة لحياة الناس اليومية، وتهدف لخدمة المحليات فقط، لذا فكانت تقام أسبوعيا. بينما مثلت الـ Fairs معارض سنوية تتعامل بالجملة غالبا، وتعقد مرة واحدة في السنة فحسب، أو على الأقل لم تكن تقام مرتين في نفس العام إلا نادرا، وكان الناس يفدون إليها من جميع الأقطار المجاورة[١]. لذا فإنها كانت بمثابة اجتماعات دورية يلتقي فيها كبار التجار المحترفين لإتمام صفقات تجارية كبرى، بصرف النظر عن احتياجات المنطقة المحلية التي تقام فيها السوق[٢]. وأبرز مثل لهذا النوع من الأسواق الكبرى التي عرفتها أوروبا العصور الوسطى، كانت أسواق شامبني Champagne، وهي المنطقة التي هيأها موقعها الجغرافي لتكون ملتقى تجار الجنوب بتجار الشمال[٣]. فقد وقع إقليم ومقاطعة شامبني Champagne في شرق فرنسا، ممتدا على ضفتي نهر مارن Marne، الذي يعد أحد أغنى المناطق المنتجة للنبيذ في غالة Gaul، كما كان

([1])Jarret, Bede, Social Theories of the Middle Ages, P. 164.

([٢]) سعيد عاشور، تاريخ أوروبا،ج٢، ص١١١.

([٣]) سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج٢، ص١١١.

يقع عند تقاطع الطرق بين الشمال والجنوب[١]. حيث كانت شامبني Champagne إقليما قديما من فرنسا ويسمى في البداية Campania، يمتد فيما بين بلدة لييج Liége وهينولت الفرنسية Hainault،ويحدها من الشمال بورجونيا Bourgogne[٢]، ومن الجنوب ولاية بار Bar وبلدة تول Toul واللورين Lorraine، ومن الشرق لابيري Labrie، ومن الغرب دوقية لوكسمبورج Luxembourg، ومن الشمال الشرقي مدن ثيرياج Thierach، لونين Laonais، وسواسون Soissons، وفي الجنوب الشرقي لي جاتينيه Legatinais[٣].

وقد جاء اسمها حقيقة من شكلها العام، فكانت كامبانيا Campania مقاطعة سهلية، أطلق المؤرخون عليها هذه التسمية ابتداءا من القرن السادس[٤].

إذا فإن الموقع السابق جعل شامبني Champagne تشرف على السهول العليا لنهر السين Upper Seine ومارن Marne، مما جعلها تقع عند ملتقى الطرق الأوروبية العظيمة التي ربطت بلاد البحر المتوسط بالأراضي المجاورة للقنال الإنجليزي وبحر الشمال، أو الأراضي التي يجري فيها أنهار الراين Rhine، والرون Rhone، الأمر الذي مكنها من جذب حشود تجارية كبيرة، من تجار الجملة، والتجار

([1])Aryeh, Grabois, The Illustred Encyclopedia of Medieval Civilization, London, 1980, P. 185.

([٢]) بورجونيا: هي منطقة إدارية واقتصادية في شرق وسط فرنسا . عنها انظر:
The New Encyclopaedia; Vol. II, P. 198.

([3])Grande, Encyclopédie, T. Dixième, Paris, N.D., P. 414.

تميزت شامبني بأراضيها الخصبة والغنية وبموقعها المتوسط إذ تقع بين المدن النامية في البلاد المنخفضة (Low Land) حيث منتجي الصوف الإنجليزي ومصائد الأسماك في بحر الشمال بين إيطاليا وقطالونيا حيث رجال المصارف وتجارة الاستيراد في الجنوب وبين ألمانيا في الشرق وبقية المملكة الفرنسية في الغرب. عن ذلك انظر: هناء الراشد، التاريخ السياسي لإمارة قطالونيا، ص٤٣٥-٤٣٦.

([٤]) قد كانت تطلق كلمة شامبني على كثير من البقاع المنبسطة الجافة من الأشجار في أجزاء مختلفة من فرنسا، مثل ضواحي شالون Chalons، وريمز Reims، وتروي Troyes. عن ذلك انظر:
Grande Encyclopédie, T. Dixième, P. 414.

جودة حسنين جودة، قارة أوروبا دراسات في الجغرافيا الإقليمية، ص١٤٥.

الجائلين الصغار من كل الدول الأوروبية ومن تجار الشرق "الليفانت" ومن الإيطاليين، والأسبان، والفلمنكيين، والألمان، والإنجليز، والاسكتلنديين[١].

الأمر الذي جعل شامبني مقاطعة ذات مركز جغرافي متميز لتبادل التجارة بين عدد كبير من دول أوروبا، فكان موقعها بين فرنسا والفلاندرز Flanders من جهة، وسهولة الوصول إليها من لومبارديا Lombardy، عن طريق ممرات سان برنارد St.Bernard ومونت سيني Mont Cenis، من جهة أخرى يجعلها الملتقى الطبيعي للتجار القادمين من كل هذه البلاد[٢]، إذ مكن هذان المعبران التجار الإيطاليين من أن يأتوا على طول ساحل بروفانس Provance، ليلتقوا بالتجار الذاهبين إلى الرون Rhone، من مارسيليا Marseilles، ومونبلييه Montpellier، وآرال Arles، ونيم Nimes، بل إن الممر الأول ربط بين لوزان Lousanne، وبيزانكون Besancon إلى لانجري Langres، وكانت جميع الطرق من غرب اللوار Loire، والسين Seine، ومن الشمال لنهر الموبز Meuse، والموزل Moselle والراين Rhine، توصل بسهولة إلى شامبني[٣]. بل إن موقعها المركزي داخل فرنسا سهل الوصول إليها من كل مقاطعات فرنسا الشمالية والجنوبية. كما كانت حدودها الغربية ملامسة لباريس Paris .

لذلك كانت شامبني نموذجا مثاليا للدور الذي قدر لها أن تلعبه في مزج التجارة عند مفترق الطرق في غرب أوروبا[٤]. فاستطاع كل من تجار الأقمشة المقيمين في الشمال وتجار الصوف البريطانيين ومستوردي حجر الشب الحائكين وتجار السيوف والجلود الأسبان والأفارقة أن يقوموا بتنظيم أعمالهم فيها[٥].

وإلى جانب موقعها المتميز فإن استعراض تاريخ تلك المنطقة يجعلنا ندرك مدى

---

(1)Boissonnade, Life and Work; P. 171.

(٢) عزيز سوريال عطية، العلاقات بين الشرق والغرب، ص١٦٦.

(3)Thompson, Johnson, Medieval Europe; P. 567.

(٤) عزيز سوريال عطية، العلاقات بين الشرق والغرب، ص١٦٦.

(5)Halphen (L.), Peuplest Civilisations histoire generale, L'essor de L'europe (XI – XIII Siecles), Paris, 1941, P. 557.

الأهمية التي وصلت إليها خلال القرن الثاني عشر الميلادي، حيث خضعت خلال ذلك القرن لسيطرة أقوى البيوت الإقطاعية الفرنسية، مثل كونتات شامبني Champagne، وبلوا Blois، وشارتر Charter، الذين أدركوا مزايا موقع بلادهم، وما قد يجنوه منها من أرباح عظيمة[١]. فقد ظل يحكم هذا السهل ذو الموقع المتميز كونتات قادرون قرابة ثلاثة قرون. ونظرا لإدراكهم مدى أهميته، فقد سعوا إلى تعزيز الفوائد التجارية لمنطقتهم[٢].

كانت شامبني Champagne ضمن نفوذ الإمبراطورية الرومانية، إلى أن تم فتحها في عام ٤٨٣م على يد الفرنجة أثناء حكم ملكهم كلوفس Clovis[٣]. الأمر الذي جعلها تصبح جزءا مهما من مملكة الفرنجة في استراسيا Austrasia[٤]. وعندما توفي كلوفس عام ٥١١م، كانت مملكة الفرنجة تمتد على جانبي الراين Rhine، وتشمل جميع غالة Gaule ما عدا أرموريكا "بريتاني" وجاسكوني، وبروفانس، على أن هناك حقيقة مهمة أثرت في تاريخ الفرنجة ومستقبل دولتهم، هي تقسيم كلوفس مملكته الواسعة وسكانها المتباينين في الأصل والجنس بين أبنائه الأربع، ومع ذلك فإن توسع الفرنجة لم يتوقف نتيجة لهذا التقسيم حتى استطاع لوثر الأول "كلوتير" توحيد المملكة عام ٥٥٨م بعد وفاة إخوته الثلاثة، ولكن بعد وفاته عام ٥٦١م انقسمت المملكة بين أولاده مما أدى إلى ظهور

---

(١) السيد الباز العريني، الحضارة والنظم، ص١٢٤.

(2)Thompson, Johnson, Medieval Europe; P. 567.

(٣) يعد قيام دولة الفرنجة، هو أهم حدث في تاريخ الغزوات الجرمانية، لأنها الدولة الجرمانية الوحيدة التي استطاعت البقاء والاستمرار داخل حدود الإمبراطورية. إذ يعتبر كلوفس Clovis (٤٨٦-٥١١م) هو المؤسس الحقيقي لدولة الفرنجة البحريين، عندما استطاع أن ينزل الهزيمة في سواسون عام ٤٨٦م بسياجريوس Syagrius الذي ظل يمثل آخر بقايا الإدارة الرومانية في حوض السين على الرغم من سقوط الإمبراطورية في الغرب قبل ذلك بعشر سنوات. عن ذلك انظر: سعيد عاشور، تاريخ أوروبا،ج١، ص٩٨.

(4)Aryeh, Grabois The Illustrated Encyclopedia of Medieval; P. 185.

عن البيت الحاكم لشامبني. انظر:

Petit-Dutaillis, Guinard, Histoire Générale, Histoire du Moyen Age, L'essor Des Etats D'occident, Tome. IV, Paris, 1937, PP. 221 – 223.

الخلافات التاريخية والجنسية بين الأقسام وهي استراسيا ونستريا وبرجنديا[١]، حيث تم ضم تروي Troyes وSent إلىمملكة برجنديا أو ما يطلق عليها "برجونيا" Bourgogne الجديدة التي كانت لانجري Langres تشكل سابقا جزءا منها[٢].

أما الجزء الجنوبي من شامبني Champagne فكان يقع ويقتصر مساحته في المدينتين الوحيدتين من ريمز Reims وشالون Chalons. وقد ظهر في هذا الوقت حكام الأقاليم الأوائل، الذين مجدهم التاريخ، إذ بعد أن سادت فترة من الاضطرابات في غالة Gaule نتيجة للهجمات الجرمانية المختلفة ذابت جميع هذه العناصر وامتزجت في الحضارة الرومانية. الأمر الذي جعلنا نشهد ظهور صناعة جديدة متميزة ومتطورة، حيث وجدت آثارها في شامبني، خاصة في مقاطعات ليزن L'Aisne، ولامارن La Marne. ومن هذه الآثار المقبرة الوحيدة الخاصة بمنطقة D'oyes بمارن Marne، التي قام بالعمل فيها أكثر من ألفين من النحاتين وهذه أرقام تقديرية وربما كانت فيها مبالغة[٣]. الأمر الذي يجعلنا ندرك كيف تميز هذا الإقليم منذ فترة مبكرة، وأن الصناعة التي قامت فيه منذ ذلك الوقت، كانت مؤشرا على أهمية هذا الإقليم. كما قامت به عدد من الأسواق منذ ذلك الحين، وهي نفس الأسواق التي سوف يعاد إحياؤها مرة أخرى فيما بعد.

ونستطيع أن نلتمس قيمة هذه الصناعة من خلال المقابر والآثار التي تركوها خلفهم والتي تدل على ما وصلوا إليه، إذ في هذا العصر كانت الجثث توضع في نعوش وتوابيت حجرية أو رخامية أو من الخشب، وكانت توضع أو تدفن ببساطة في باطن الأرض. وكانوا يحتفظون في المقبرة بأسلحتهم وحليهم وملابسهم وبعض الأواني التي كانت في الغالب من الفخار أو الطين أو الزجاج، والتي يتم تزويدهم بها. وبالنسبة لأنواع الأسلحة فإن المحاربين كان لديهم الرماح، والخناجر القاطعة،

---

(١) سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج١، ص١٠٢.

(٢) عن بورجنديا وتولوز. انظر:

Petit-Dutaillis, Guinard, Histore du Moyen Age, Tome. IV, P. 223.

(3)Grande Encyclopédie, T. Dixiéme, PP. 416 – 417.

والحراب، والسلطونك[1]، وكان السيف والسهم نادرين جدا ويعتبران من سلع الترف. وكانت الجواهر المعروفة عندهم من بلاد الشرق كالحلي والأساور من البرونز المذهب والمرصع بالحجر السيلاني وكانت أحد طرقهم الرئيسية في الزينة تتمثل في واحدة أو أكثر من رؤوس الطير الفرنسية ذات المنقار المعقوف وهذا ما نجده كثيرا في الجواهر القوطية Gothiqies، كما وجد في مقابرهم شئ آخر في ذلك العهد وهو الحجر الصوان المنحوت الذي يبدو أنه قد نقل إليها طبقا لبعض الطقوس الجنائزية التقليدية[2]. وبذلك يتضح أن السلع الشرقية قد وجدت طريقها إلى ذلك الإقليم وإلى أسواقه منذ وقت مبكر، بدليل أن الجواهر التي وجدت فيه كانت أصلا من الشرق.

أصبحت مقاطعة شامبني مؤسسة ديرية، مليئة بالعقارات الكبيرة، بعد تقسيمها بين العديد من البارونات الإقطاعيين في القرنين الثامن والتاسع الميلاديين. وهكذا فقد الاسم "شامبني" أهميته، ولم يعد له ذكر حتى القرن الثاني عشر، كما تعرضت المنطقة خلال القرنين التاسع والعاشر لهجمات وصراعات عليها من قبل جيرانها الأقوياء[3]. حيث مرت هذه المقاطعة بثلاث فترات زمنية مهمة امتدت الفترة الأولى (٥٨١-٨١٤م) وكانت فيها شامبني ولاية ميروفنجية حكمها مجموعة من الأدواق مثل الدوق لوب Loup وهو أول دوق معروف بها، ثم امتدت الفترة الثانية (١٩٩-٣١١هـ/٨١٤-٩٢٣م) وكانت فيها تحت الحكم الكارولنجي، حيث تكونت بها كونتيات مستنيرة ووراثية في تروي Troyes ، حيث أصبحت العاصمة فقد كانت هذه المدينة تحتل مكانة كبيرة منذ العصر الروماني، واستمرت هذه الأهمية والمكانة في العصور التالية، ويرجع ذلك إلى أسواقها المهمة التي لعبت دورا كبيرا منذ القرن الخامس. أما الفترة الثالثة والتي امتدت (٣١١-٤١٠هـ/ ٩٢٣-١٠١٩م) والتي

---

(1) السلطونك: نوع من أنواع الأسلحة القاطعة ذو حد قاطع مزدوج . عن ذلك انظر :
Grande Encyclopedie, T. Dixieme; P. 417.

(2)Grande Encyclopedie, T. Dixiéme; P. 417.

(3)Aryeh, Gralois, The Illustrated Encyclopedia of Medieval, P. 185.

كان فيها كونتات مقاطعة شامبني من بيت فيرماندوا Vermandois وكان هيربرت Herbert أول كونت بمقاطعة شامبني ينحدر أصله من سلالة شارلمان Charlemagne، وتزوج من هلدبراند Hildebrande ابنة روبرت حاكم فرنسا Robert de France وقدر له أن يتولى ويجلس في مقر الكونت في تروي Troyes[1].

كانت الخطوة المهمة نحو إحياء منطقة شامبني هي إعادة تأسيس مقاطعة تروي Troyes في بداية القرن الحادي عشر الميلادي، من قبل كونتات إدث Eudes في بلوا Blois والتي توارثوها من عام ٤٠٥هـ/١٠١٤م.

وعلى الرغم من أن أتباع دوقات برجنديا Burgundy كانوا تابعين لمقاطعة تروي Troyes وكان كونتات بلوا Blois وتروي Troyes قادرين على إقامة قاعدة قوية للحكم في تروي Troyes وبذلك شكلوا تهديدا كبيرا لملوك فرنسا في باريس Paris وأورليان Orleans، حتى أصبحوا خصومهم الألداء، فقد ورثوا مقاطعة Meaux قبل عام ٤٤٢هـ/١٠٥٠م، وعندما ازدهرت التجارة في النصف الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي، تم إقامة معارض شامبني في تروي وبروفانس Provins، ولاجني Lagny (قرب Meaux) حيث يتجمع التجار من جميع أنحاء أوروبا[2]، ومن هنا كانت البداية الأولى لثرائهم[3]. فكانت هذه الأسواق قائمة منذ القدم، ولكن تم انتعاشها مرة ثانية في القرن الثاني عشر

---

(1)Grande Encyclopedie, T. Dixieme; P. 417.

(٢) فقد قدم التجار من برشلونة إلى معارض شامبني، وما يؤكد ذلك أن معرض لاجني Lagny هذا كان يعرض فيه كميات وافرة ومتنوعة من الجلود المدبوغة وغير المدبوغة، وكان منها الجلد القرطبي (Cordovean) الذي يأتي من برشلونة. عن ذلك انظر: هناء الراشد، التاريخ السياسي لإمارة قطالونيا، ص٤٣٦.

(٣) في نهاية القرن الحادي عشر أصبح الفرع الذي يحكم في تروي Troyes، هو الفرع الأقوى والذي تميز عن الفرع الذي يحكم في بلوا Blois، وقد أصبح الملك ثيبوت Thibaut – وهو الشقيق الأكبر للملك ستيفن ملك انجلترا (٥٣٠-٥٤٩هـ/١١٣٥-١١٥٤م) – هو المؤسس لكونتية شامبني Champagne حيث دخل في صراع مع لويس السادس ملك فرنسا. عن ذلك انظر:

The Illustrated encyclopedia of medieval Civilization, P. 185.

الميلادي من خلال المعاملات والمكاسب التي جذبت التجار الغرباء بضمانات فاعلة وأكيدة، فهذه الأسواق الكبيرة التي كانت تتدرج في ست مراحل ابتداء من الربيع وحتى بداية دخول الشتاء، كانت تستقبل وصول البضائع لبضع أسابيع وتخزن في مخازن أربع مناطق صغيرة وهم تروي Troyes ، وبروفانس Provins ولاجني Lagny وبار – سير – أوب Bar – Sur – Aube[1]، حيث أن هذه المناطق كانت تشكل في الغرب ملتقى الطرق الرئيسية للتجارة[2]، فقد بدأ كونتات شامبني Champagne، منذ فرضوا سيطرتهم على اللوار Loire في العمل على تحويل أراضيهم إلى سوق واسع[3]، حيث عملوا على تحقيق الحماية والأمن للتجار والمتنقلين عبر الطرق القادمين إلى أسواقها أو المغادرين منها، وحمايتهم كذلك قانونيا ورقابيا[4]. وقد كانت أسواق شامبني الستة تقام اثنين في بروفانس Provins واثنين في تروي Troyes، وسوق في لاجني Lagny، وآخر في بار – سير – أوب Bar-Sur-Aube . وكان كل سوق من هذه الأسواق الستة الكبيرة تنعقد لمدة ستة أسابيع أو سبعة في أيام أعياد الميلاد وأعياد الفصح وفي مايو ويونيه على التوالي، ولم يكن يتداخل موعد الواحد منها مع الآخر، ولذا كاد النشاط التجاري أن يكون مستمرا طوال العام بكل ما توفره العصور الوسطى من الحرية في السوق[5].

---

(1) المقصود ب"بارسير أوب" قلعة أيوب، يذكر الأسقف رودريجو الطليطلي أنها كانت حصنا رومانيا قديما يسمى Bilbilis ولكن أيوب بن حبيب ثاني ولاة الأندلس جدد بناءه فسمي باسمه، وهي تابعة للثغر الأعلى غربي سرقطسة. عن ذلك انظر: هناء الراشد، التاريخ السياسي لإمارة قطالونيا، ص٤٣٨ حاشية (١).

(2)Duby, Mandrou, Histore dela Civilisation; P. 180.

(3)Ainter, History of the middle Ages; P. 224.

(4) Henri Sée, Histoire Economique et sociale de la France, Paris, 1929, P. 100.

عن الثورة القانونية والتجارية في مدن شامبني انظر:

Halphen, Peuples et Civilisations Histore Générale; PP. 94 – 96.

(5) Perroy, Histoire Generale des Civilisation, P. 361.

=

وقد حظيت تلك المعارض بأهمية كبيرة حيث إن أي تاجر أجنبي يقوم بخرق النظم المتبعة فيها يتم إجلاؤه هو ومن معه من أهل بلدته من المعرض. وقد كانت المعارض في الأماكن الأخرى تقام في قاعة كبيرة منفردة، أما في معارض شامبني Champagne فقد كانت القاعات والمخازن منتشرة في كافة أرجاء المدينة. وقد تم تطوير القانون المنظم لتلك المعارض لتفادي وقوع الخلافات وليمنح وكلاء الكونت الفرصة ليتأكدوا أن جميع المستحقات المناسبة تصل إلى خزانته[١].

وتم تنظيم عملية البيع داخل أسواق شامبني التي أقيمت خلال ثلاثمائة يوم في السنة تقريبا[٢]، إذ قبل بدء السوق بقرابة أسبوع يصل التجار إلى مكان انعقاده ببضائعهم، حيث يقومون بتفريغها وتنظيم معروضاتهم. فكان هذا الإسبوع الذي قد يمتد إلى ثمانية أو تسعة أيام، بمثابة تمهيد للسوق، فبعد استقرار التجار ووضع بضائعهم يقومون بمعاينة السوق والبضائع ليقوموا بعد ذلك بتحديد الأسعار، ثم تأتي بعد ذلك مرحلة البيع. وفي المدة المحددة لعمل السوق كان يتم الإعلان عن فتح أبوابه صباح كل يوم وعن غلقها في المساء عن طريق دق الأجراس، ولا يسمح بالعمل سوى في هذا الوقت المحدد بدق الأجراس فحسب، وفي الأيام العشرة الأولى من السوق كان يتم فيها بيع الأصواف والمنسوجات والحرايز فقط، ثم يتم في العشرة أيام التالية بيع الجلود المدبوغة، والغير مدبوغة، والفراء، ثم في العشرة أيام الثالثة يتم تخصيصها لبيع السلع التي تباع عن طريق الوزن والكيل. ثم يترك للتجار إسبوعين للقيام بعملية الجرد، ودفع الرسوم المستحقة لمسئولي الكونت وذلك مقابل السماح لهم بحضور السوق، مع مراعاة ختم العقود المهقم بخاتم السوق[٣].

=

السيد الباز العريني، الحضارة والنظم، ص١٢٤، عزيز سوريال عطية، العلاقات بين الشرق والغرب، ص١٦٦، هناء الراشد، التاريخ السياسي لإمارة قطالونيا، ص٤٣٨.

- Boissonned, Life and Work; PP. 170 – 171.

([1])Thompson, Johnson, Medieval Europe; PP. 567 – 568.

([2])Halphen, L'essor de L'europe; P. 557.

([3])Thompson, Johnson, Medieval Europe; P. 568.

=

وكان يتم إجراء العمليات التجارية بالنقد الرسمي للسوق، وهو عملة تروي Troyes، وبروفانس Provins، ثم يتم في نهاية السوق تسوية الحسابات بواسطة الصيارفة[١]. إذ حددت الأيام الأخيرة من المعرض لتسوية وإتمام ارتباطاتهم المالية، مع السماح بنقل تلك الارتباطات من معرض لآخر[٢]، وذلك عن طريق التجار الإيطاليين ثم اللجوء إلى الإقرار بالديون الذي اعتبر، بشكل أولي، بمثابة سندات دين تدفع في مكان وبعملة يعينان مسبقا[٣]. كما تضمنت هذه المعارض قيام المحاكم بها للنظر في أي نزاع ينشأ داخلها، وليدافع فيها التجار عن حقوقهم، وليتم من خلالها مناقشة المشكلات التجارية، ولمعاقبة كل من يخرق القوانين[٤]. بل إن أمراء شامبني قاموا بحماية التجار من خلال إصدارهم قرار بعدم القبض على أحد من التجار في السوق، أو في أي مكان بأراضي الكونت أثناء ذهابه إلى السوق أو قدومه منه، بسبب ما عليه من الديون. إضافة إلى بسط الحماية على الطرق المؤدية إلى السوق، فلم يكد ينتهي القرن الثاني عشر الميلادي حتى أدرك التجار القادمون إلى أسواق شامبني، أن

=

- Henri Sée, Histoire Economique et la France, P. 101.
- Halphen, L'essor de L'europe; P. 557.
- Duby, Mandrou, Histore de la Civilisation; P. 180.
- Gauvard (C.), La France au Moyen Age du Vau XV Siecel, Paris, 1996, P. 257.

سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج٢، ص ص١١١-١١٢.

(١) السيد الباز العريني، الحضارة والنظم، ص١٢٥.

عن أسواق شامبني والديون التجارية، انظر:

Pirenne (H.), Cohen (G.), Focillon (H.), Histoire Generale, Histoire du Moyen Age, La Civilisation Occidentale au Moyen Age du X au Milieu du XV Siécle, Tome VIII, Paris, 1933, PP. I, 104 – 111.

(2)Halphen, L'essor de L'europe, PP. 557 – 558.

(٣) إدوار بروي، القرون الوسطى، ج٣، ص٤٠١.

(٤) عادل زيتون، العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب، ص٤٣، عزيز سوريال عطية، العلاقات بين الشرق والغرب، ص١٦٧، بيشوب، تاريخ أوروبا، ص٢١٧.

معظم طرقهم التي يسلكونها إلى تلك الأسواق قد تم تأمينها[١]، لذا فقد لقيت أسواق شامبني نجاحا باهرا، إذ قدم التجار الإيطاليون، الذين اجتازوا ممرات الألب، حاملين معهم السلع النادرة الواردة من الشرق، بل ومعظم سلع ومتاجر بلدان البحر المتوسط، مثل المنسوجات الصوفية من إيطاليا والشب من مصر، والذهب والفضة من شمال أفريقية والسجاد من فارس، فضلا عن متاجر الشرق الأقصى كالحرير الصيني، والتوابل الهندية، في حين اشترى تجار المدن الإيطالية الكبرى مثل البندقية Venice، وجنوه Genoa، وبيزا Pisa، من أسواق شامبني الأقمشة والمنسوجات الفرنسية والفلمنكية Flemish، والتي أصبحت على أيدي التجار الإيطاليين الصادرات الرئيسية من الغرب الأوروبي إلى بلدان شرق البحر المتوسط[٢]. الأمر الذي يجعلنا ندرك مدى ازدهار الحركة التجارية داخل أسواق شامبني منذ القرن الثاني عشر، فقد شهدت تلك الأسواق ومنذ ذلك الوقت امتزاج تجارة الشمال الأوروبي مع تجارة جنوب أوروبا، حيث قدم التجار إليها حاملين رفاهيات الجنوب من أجل استبدالها بقماش التجار الفلمنكيين[٣]، الأمر الذي حقق ازدهارا غير مسبوق لهذه الأسواق فقد قدم إليها التجار من كل الأقاليم القريبة من بورجونيا Bourgogne ، وفلاندرز Flandres، وبيكاردي Picardie، ونورماندیا Normandie، وبروفانس Provence، ولانجدوك Languedoc[٤] وتوافد عليها كذلك التجار من كل دول أوروبا من انجلترا وإيطاليا وألمانيا وسويسرا، ودول الشمال القطبي، واسبانيا، والبرتغال، وبولونيا، وكذلك من الشرق. ولم تكن البضائع أقل تنوعا بالتأكيد فكانت تشمل تجارة الحيوانات والحبوب والمنتجات الغذائية من كل الأنواع والأصواف والمنسوجات المطرزة بخيوط الذهب والفضة، والحرير والتيل، والكتان، والجلود،

---

(١) السيد الباز العريني، الحضارة والنظم، ص١٢٥.

(٢) عادل زيتون، العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب، ص٤٣-٤٤.

(3)Adelson, Medieval, Commerce, PP. 85 – 86.

(٤) اللانجدوك : هي سبتمانيا وهي تمتد من شمال جبال البرتات بحذاء الساحل حتى تتصل بما يعرف بالريفيرا الإيطالية . عن ذلك انظر: هناء الراشد، التاريخ السياسي لإمارة قطالونيا، ص٥٦ حاشية (٢).

وكل أنواع الفراء، والتوابل، والنبيذ الفرنسي والأجنبي. كما أخذت الصناعات الوطنية أيضا في الاتساع مثل صناعة الحديد التي أخذت في الانتشار في أقاليم المارينز Haute-marnaise[١] كما كان هناك حي كامل متخصص في صناعة المنسوجات المصبوغة[٢]. ويشهد على ذلك التنوع في السلع المعروضة داخل أسواق شامبني العقود التي كانت تختم داخل السوق، حيث تعطي فكرة عامة عن البضائع، مثل الحرير والتوابل المستوردة من الشرق، والأصواف المجلوبة من الفلاندرز وإيطاليا والأقمشة الكتانية الواردة من بريتاني، والفراء الروسي والاسكندناوي، والمنتجات الحديدية والجلدية المجلوبة من ألمانيا، والنبيذ والخمور الواردة من فرنسا وأسبانيا[٣]. ونظرا لما حازته هذه الأسواق من أهمية، وبما أنها كانت أسواقا للجملة، لذا فإن كبار السادة الإقطاعيين بفرنسا، دأبوا على أن يرسلوا إلى هذه الأسواق مندوبين من لديهم، لشراء كل ما يحتاجون إليه من المؤن من تلك الأسواق، فكانوا يشترون ما يكفي استهلاكهم لمدة سنة، ومن تلك السلع التي اشتروها التوابل، والسكر، والمنسوجات، والفراء، والأسلحة[٤]. كما ظهرت أسواق محلية كانت تتزود بالسلع من أسواق شامبني، بيد أنه لم يشتهر من هذه الأسواق بسلع معينة سوى عدد قليل، منها سوق بوسطن Boston الواقعة شرق انجلترا، التي أصبحت مركزا كبيرا لتجارة الصوف الخام، فوفد إليها التجار من الفلاندرز، واشترى ملوك انجلترا كميات كبيرة من مؤنهم من هذا السوق[٥]. الأمر الذي يعطي صورة واضحة عن ازدهار التجارة داخل أسواق شامبني خاصة في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، نتيجة لموقعها المهم

---

(١) أقاليم المارينز : يقع الإقليم شمال شرقي فرنسا، وكان في الماضي جزء من شامبني. انظر:
The New Encyclopaedia; Vol. IV, P. 953.

(2)Garade Encyclopedie, T. Dixiéme; P. 421.

(٣) سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ص١١٢.

- Thompson, Johnson, Medieval Europe; P. 568.

عن أسواق شامبني والتجارة . انظر :

Pirenne, Cohen, Focillon, la Civilisation Occidentale au Moyen Age, Tome VIII, PP. 89 - 90.

(٤) السيد الباز العريني، الحضارة والنظم، ص١٢٥، بيشوب، تاريخ أوروبا، ص٢١٧.

(٥) السيد الباز العريني، الحضارة والنظم، ص١٢٥.

في ملتقى الطرق التجارية المهمة من جهة، ونتيجة كذلك لما حازته من أمن واستقرار تحت رعاية حكامها، مما شجع قدوم التجار إليها وتفضيلهم العمل داخلها على ما سواها من المعارض الأخرى.

يتضح ذلك من خلال المراسلات التجارية التي كانت تتم بين التجار وشركائهم داخل الأسواق وخارجها، وليس من شك في أهمية تلك المراسلات باعتبارها مستندات وثائقية مهمة، حيث تعطي صورة واضحة لحياة التجار اليومية، وقيامهم من خلالها بمناقشة أمور التجارة والمشكلات التي قد تقابلهم مما يضفي عليها أهمية كبيرة[1]. من تلك المراسلات رسالة وردت ردا على خطابات واردة من فرنسا أحضرها الرسول الأول، بنقابة التجارة من سوق May في بروفانس Provins عام ٦٥٩هـ/١٢٠٦م اشتملت على رد مجموعة من الشركاء الموجودين في سينيا Siena (وهم Giacomo و Giovanni و Gregorio و Vincente و Aldobrandino و Vincenti) على شريكهم الموجود في سوق بروفانس Provins (والذي يدعى Giacomo di Guido Cacciaconti) بشأن بعض استفساراته، إلى جانب إعطائه بعض التعليمات، وإعلامه ببعض تطورات الموقف لديهم. إذ يخبروه "أنهم فهموا من خلال هذه الخطابات تعليماته بشكل مؤكد، وعليه فسوف يهتمون بمهامهم التجارية هنا (أي في سينيا Siena) . على أن يكون منتبها وأكثر تركيزا في عمله هناك (أي في بروفانس Provins)، وأن يكون أكثر حذرا في الاستثمار والإقراض، بأن يقرض أناسا صادقين يتمتعون بالثقة والأمانة حتى يستطيع أن يسترد منهم الأموال عند الحاجة. كما يلفتون نظره إلى أنهم يكتبون كل ما يرد إليهم منه بكل دقة، في خطاباته، من إيصالات ومدفوعات وقروض أقرضها في كل سوق، ولذلك فعليه أن يقوم بتسجيل كافة العمليات التجارية في الدفاتر، في جميع الأسواق التي يرتادها، على أن تكون الإيصالات مع الإيصالات والمدفوعات مع المدفوعات والقروض مع القروض. وبناء على ذلك فإنهم يطلبون منه ضرورة

([1])Commercial Correspondence. In, Lopez, Raymond, Medieval Trade; P, 378.

إبلاغهم مباشرة عن أي أموال يحصلها مرة واحدة وفي خطاب واحد دون تكرار حتى لا يسجلوا أمرا واحدا أكثر من مرة. كما يعلموه بألا يندهش بشأن بيع الضمانات Provisines[1] لأن النفقات لديهم باهظة بسبب الحرب الدائرة بينهم وبين فلورنسا Florence[2] . وأنهم يحتاجون المال للإنفاق على الحرب وأن المصدر الوحيد أمامهم لجمع المال هو بيع الضمانات Provisines. كما لن يفيدهم الحصول على قرض عندهم (في سينيا Siena) لأن تكاليف المال مرتفعة جدا، حيث تصل من خمسة إلى ستة دنيير deniers للجنيه إذا تم التحويل من التجار، وتصل من عشرة إلى اثنى عشر جنيها في حال التحويل من غير التجار وهو ما يعرف "بالتحويلات الصعبة" corsa أو hard exchange[3] . مما يظهر الفرق الحاد في الإقراض بين التجار وغير التجار في عملية إبدال العملة. لذا فإن ظروف الإقراض في سينيا Seina غير ملائمة بينما في فرنسا أفضل لذا فإن بيع الضمانات Provisines أكثر ربحا، لذا فلابد أن تكون أكثر إجادة لعملك هذا"[4]. الأمر الذي يضفي على تلك الخطابات الأهمية لأنها تعطي معلومات عن ظروف السوق والتوقعات التجارية والإدارة الداخلية لشركاتهم التضامنية والأحداث

---

(1) الـ Provisines : هي الضمانات المالية التي يتركها التاجر في وطنه نظير حمله للتجارة. وقد اضطروا لبيعها لحاجتهم إلى المال. عنها انظر :

Cave, Coulson, Asource book, P. 20.

(2) كانت سينيا Siena إحدى المدن الرئيسية التابعة للملك مانفرد الصقلي، وهو ابن الإمبراطور فردريك الثاني، وكان يقوم بإخضاع المدن الإيطالية لنفوذه ومنها فلورنسا، لكنه عزل من قبل البابا الذي عين مكانه شارل أنجو أخو لويس التاسع. عن ذلك انظر: عفاف صبره، الإمبراطورية والدولة في عصري فردريك الثاني ولويس التاسع، بحث في مجلة كلية الدراسات الإنسانية، جامعة الأزهر، عدد ١٩٨٢م، ص٨٤.

(3) الـ Corsa : تعني التبادل الصعب أو التحويلات الصعبة. عن ذلك انظر:

Lopez, Raymond, Medieval Trade; P. 389 (42) حاشية

(4)Report from the Fairs of Champagne, Siena, July, 5, 1260, in: Lopez, Raymond, Medieval Trade; PP. 388 – 392.

السياسية والمشاعر والمشاكل الشخصية الأخرى[1]. خاصة وأن أسواق بروفانس Provins كانت تشهد في ذلك الوقت رواجا غير مسبوق، إذ في عام ٦٧٩هـ/١٢٨٠م تم تداول خمسة وخمسون ألف (٥٥.٠٠٠) قطعة قماش في تلك الأسواق فقط، حيث كانت نصف هذه البضائع من مصادر فلمنكية[2].

ومن تلك المراسلات أيضا خطاب مرسل من قبل المندوب الرئيسي في سوق تروي Troyes من أهل سينيا Siena في ٦٦٤هـ/ نوفمبر عام ١٢٦٥م[3]، والذي بعث به إلى أحد زملائه وشركائه متضمنا موضوعات عديدة منها "أن مندوب نقابة التجار لم يصل إليهم بعد في السوق، والذي يحمل معه خطابات كثيرة من هؤلاء الشركاء المتواجدين في مدينة سينيا Siena، كما أوضح لهم أن شيئا يحدث في السوق، وهو أن المندوب البابوي الذي يقوم بجمع ضريبة العشر لمساعدة الملك شارل أنجو[4] ضد منافسه الملك مانفرد[5]، والتي اعتبرها لصالح القضية المسيحية، كما تحدث في خطابه عن أثر ذلك على التعامل في سوق شامبني حيث حدث انخفاض في

---

(1) إذ أن الحقيقة تؤكد على أنه ليس هناك أفضل من مراسلات التاجر لتعرف نفسيته، فالمراسلات تكشف الزوايا المختبئة في الحياة الخاصة، من حيث التعبير عن الآراء الصريحة في السياسة والدين والمجتمع وفوق كل ذلك مناقشة أمور التجارة بشكل منفتح عن بقية الوثائق أو المستندات الأخرى. عن ذلك انظر:

Lopez, Raymond, Medieval Trade; PP. 378, 379.

(2)Duby, Mandrou, Histore de la Civilsation; P. 181.

Gauvard, La France au Moyen Age; P. 257.

(3) Reports From the Fairs of Champagne, Troyes, November, 29, 1265. in Lopez, Raymond, Medieval Trade; PP. 392 – 394.

(4) شارل الأنجوي Charles of Anjou (١٢٢٦-١٢٨٥م) : أحد الأمراء الفرنسيين، شقيق لويس التاسع ملك فرنسا (١٢٢٦-١٢٧٠م) تحالف مع البابوية ونجح في حكم صقلية بعد قتله لملكها مانفرد، فحكمها حكما تعسفيا. عن ذلك ارجع إلى: إيمان عبد التواب خلاوي، دور شارل كونت أنجو في عصر الحروب الصليبية في الشرق الأدنى الإسلامي وتونس، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب (فرع دمنهور)، جامعة الاسكندرية، ٢٠٠٨م .

(5) الملك مانفرد: (١٢٥٨-١٢٦٦م) هو الأخ غير الشقيق لكونراد الرابع، ابن فردريك الثاني ، أحد أفراد أسرة هوهنشتاوفن، قتله شارل أنجو ليحكم صقلية كتابع للبابوية. عنه انظر: سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج١، ص٥٦١.

حركة البيع والتعامل في السوق، مع كثرة وجود البضائع، وضرب مثلا لذلك أحمال الفلفل والزنجبيل والزعفران والتي لم تبع كما تحدث معهم عن مشاكل التعاملات النقدية والتبادل بين مجموع التجار وأجناسهم، وعن أسعار العملات المختلفة. وفي ذلك تأكيد على تأثر السوق، في البيع والشراء والتبادل النقدي والتحويلات، بالظروف السياسية"[١].

برزت مكانة خاصة لأسواق شامبني في التجارة الدولية، مع الاحتفاظ بالسمة العصرية. فإن كان قد وجد خارج شامبني بالقرب من باريس أسواق أخرى مثل سوق لنديت Lendit في سان دنيس St.Denis، التي افتتحها مجموعة من طلبة الحي اللاتيني في جامعة باريس[٢]، لشراء بعض أدواتهم الدراسية السنوية. كما وجد في منطقة أخرى من فرنسا سوق بوكير Beaucaire بجوار مرسيليا، وسوق أخرى في آكس Achen وفي بروفانس Proovins[٣]، إلا أن أسواق شامبني Champagne ظلت محتفظة بتميزها عن الأسواق الأخرى حتى القرن الرابع عشر الميلادي[٤]. حيث شهد

---

(1) Lopez, Raymond, Medival Trade; PP. 392 – 394.

(٢) جامعة باريس: يعد فيليب أوغسطس مؤسس هذه الجامعة، حيث حصلت جامعة باريس على أول براءة ملكية ضمنت لها امتيازاتها، من الملك فيليب أوغسطس، بل حققت لها اعترافا رسميا من السلطة الحاكمة. وهكذا لم تلبث أن ظهرت باريس كمركز لأعظم جامعة شمالي الألب في العصور الوسطى. عن ذلك انظر: سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج١، ص٢٧٤.

لمزيد من التفاصيل عن نشأة الجامعة وتطورها. انظر: ياسر عبد المعبود، جامعة باريس، ص٣٠-٣٣، عن مرسوم فيليب أغسطس لجامعة باريس. انظر: سعيد عاشور، الجامعات الأوروبية في العصور الوسطى، القاهرة، ١٩٥٩م، ص٥٧-٥٨، جوزيف نسيم يوسف، نشأة الجامعات في العصور الوسطى، الاسكندرية، ١٩٨٤م، ص١٦٧-١٦٩.

(٣) عزيز سوريا عطية، العلاقات بين الشرق والغرب، ص١٦٧.

ولمزيد من التفاصيل عن أسواق فرنسا انظر :

See: Huvelin (P.), Le droit des Marches et des Foires, Paris, 1897, PP. 189 et Sqq.

(٤) لمزيد من التفاصيل عن أسواق شامبني انظر :

=

هـذا القـرن تقلـص أسـواق شـامبني، ويرجـع ذلـك إلـى عـدة أسـباب منهـا تحـول الأسـواق التجاريـة المتنقلـة إلـى أسـواق دائمـة[١]، حيـث أخـذ التجـار يسـتقرون تـدريجيا فـي مراكـز ثابتـة، ممـا أتـاح لهـم، - بعـد تعـدد الشـركات ذات الفـروع واسـتخدام الأوراق التجاريـة المكتوبـة- التفـاوض فـي العمليـات التجاريـة دون مواجهـة المشـترين[٢]، كمـا أن شـامبني انتقلـت عـن طريـق الـزواج إلـى ملكيـة بيـت كابيـه، فأخـذ فيليـب الرابـع الجميـل Philip IV the fair[٣] (٦٨٤-٧١٤هـ/١٢٨٥-١٣١٤م) فـي تحصـيل إيـرادات الأسـواق ومواردهـا للاسـتفادة بهـا فـي مواجهتـه لكونتـات الفلانـدرز، واشـتدت حاجتـه للمـال بـرغم اسـتيلائه علـى أمـلاك اليهـود ومصـادرة ممتلكـات الداويـة[٤]، فلجـأ إلـى رفـع الإيجـارات، وزيـادة الضـرائب علـى السـواق، ممـا أدى إلـى

=

- BourQuelot, Etudes sur les Foires de Champagne, Paris, 1865.
- Bassermann, Die Champagnermessen, Tubingen, 1911.
- Pirenne (H.), un Conflit enter le magistrate Prois et les grades des Foires des_Champagne, in Bulletin de la commission Royal d'histoire de, Belgium, T. IXXXVI, 1922.
- Sayous (A.), Les operations des banquier italiens en Italie et aux Foires des Champagne Pen dent le XIII siecle, in Revue Historiaque, T. CLXX, 1932.

(١) بيرين، تاريخ أوروبا، ص١٠٢.

(٢) إدوار بروي، القرون الوسطى، ج٣ ، ص٤٠١.

(٣) فيليب الرابع Philip IV : امتاز فيليب الرابع، الذي تولى عرش فرنسا خلفا لأبيه فيليب الثالث أو الجرئ، ببعد النظر وقوة العزيمة والمهارة السياسية وقد اتجهت سياسته نحو توحيد فرنسا تحت سيادة الملك ومد حدودها وتحقيق زعامتها على غرب أوروبا. عن ذلك انظر: سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج١، ص٢٨٠-٢٨٨.

(٤) الداوية: هم أفراد إحدى المنظمات التي أسهمت بنصيب واضح في الحروب الصليبية والتي قام الملك فيليب بإصدار أمر بحل هيئتها ومصادرة أملاكها عام ١٣١٢م. انظر: سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج١، ص ص٢٨٦، ٢٨٧.

نـزوح التجـار إلـى جهـات أخـرى[1]. كمـا قـام فيليـب الرابـع Philip IV – وفـي سـبيل السـيطرة علـى الفلانـدرز Flanders – بفـرض رسـوم باهظـة علـى البضـائع الفلمنكيـة المخصصـة لأسـواق الفلانـدرز. ثـم مـا كـان مـن قيـام البنادقـة عـام ٧١٧هـ/١٣١٧م بافتتـاح خـط ملاحـي جديـد يتجـه رأسـا إلـى انجلتـرا والفلانـدرز، دون وسـاطة مـن تجـار وأسـواق غرب فرنسا، وهو ما شكل ضربة قاصمة لأسواق شامبني[2].

يتضح لنا مما سبق أن أسواق شامبني تمتعت بموقع متميز للغاية مكنها من أن تبلغ أقصى درجات النمو والازدهار، وأنها ظلت لعدة قرون ملتقى التجار القادمين إليها من شتى بقاع أوروبا.

---

(1) السيد الباز العريني، الحضارة والنظم، ص١٢٦.

(2) سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج٢، ص١١٢.

Thompson, Johnson, Medieval Europe; P. 568.

هناء الراشد، التاريخ السياسي لإمارة قطالونيا، ص٤٤٠.

(٢) أسواق الفلاندرز : الموقع وأثره على ازدهار الحركة التجارية :

شهد شمال أوروبا انتعاشا اقتصاديا كبيرا بلغ ذروته في الفلاندرز Flanders، بسب موقعها الجغرافي المتميز، حيث تقع في ملتقى الطرق التجارية إذ كانت محاطة باليابسة من ناحية والبحر من ناحية أخرى[١]. إلى جانب أنها تطل على بحر البلطيق Baltic، وأراضي الراين Rhine land وشمال فرنسا، والجزر البريطانية[٢]. ففي الوقت الذي أصبح فيه شمال إيطاليا مركزا لإحياء تجارة البحر المتوسط، أصبحت الفلاندرز Flanders تلعب نفس الدور في شمال أوروبا من قبل الغزو الروماني لغالة Gaul. فكانت مدن الفلاندرز تمتد على طول الساحل في شمال فرنسا وبلجيكا الحالية، وذاع صيتها وشهرتها في إنتاج الصوف منذ زمن الكارولنجين Carolingian، حتى أن هذا المنتج المتميز[٣]، أدى إلى ازدياد التعامل التجاري مع هذه البلاد[٤]. فموقع كونتية الفلاندرز Flanders المتميز في الركن الشمالي الشرقي لفرنسا فيما وراء حدودها مكنها من أن تكون ملتقى العديد من الطرق التجارية فإليها تنتهي الطرق القادمة من باريس وجنوبي ألمانيا وإيطاليا إضافة إلى القوافل التجارية المنحدرة في

---

(١) اشتهر سهل الفلاندرز الفرنسي، الواقع شمال تلال أرتوا، باسم الإقليم الصناعي الشمالي الشرقي نظرا لشيوع الصناعة داخله. وينقسم السهل إلى نطاقين: أحدهما بحري والآخر داخلي. وقد استصلح الأول لأنه كان عبارة عن أرض مستنقعية، وفي هذا النطاق المستصلح يجود زراعة القمح وبنجر السكر والكتان. أما النطاق الداخلي فمنطقة زراعية كثيفة، تصلح أرضها الطينية لزراعة المحصولات المجهدة للتربة كالقمح. عن ذلك انظر: جودة حسنين جودة، قارة أوروبا، ص١٥٢.

(2) Hoyt, Chodorow, Europe in the Middle Ages, P. 267.

(٣) نظرا لتميز إقليم الفلاندرز واشتهاره بصناعة المنسوجات الصوفية فقد ازدهرت تجارتها، حتى أن شارلمان لم يجد شيئا يهديه إلى معاصره الخليفة هارون الرشيد أجمل وأثمن من بعض هذه الأقمشة الصوفية التي ينتجها إقليم الفلاندرز. عن ذلك انظر: سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج٢، ص٩٣ حاشية (٢٦). لمزيد من التفاصيل انظر:

- Pirenne (H.), Cohen (G.), Focillon (H.), Le Civilisation Occidentale au Moyen Ages du VI au Milieu du XV Siecle.

(4) Painter, History of the Middle Ages; P. 222.

نهر الراين والتي كانت تصل إلى موانيها، بل وكانت تلتقي هناك بالقوافل القادمة من اسكندنافيا وانجلترا وبقية فرنسا[١].

كان لهجمات الفيكنج Viking على بلاد الفلاندرز أكبر الأثر على أهلها وما لاقوه من أهوال، لكن في النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي، تمكن الكونتات الأقوياء من إقامة نظام محكم في هذا الإقليم[٢]. وسريعا أصبح هذا الإقليم ينتج الأقمشة الصوفية أكثر بكثير من أي وقت مضى. وقد هيأ له موقعه سهولة الوصول إلى الأسواق لتسويق منتجاته الغزيرة. وعندما نزل التجار الاسكندنافيين Scandinavian، من الشمال بمنتجات الفراء الثمينة التي حملوها من أوطانهم التي كانت غنية بالحيوانات ذات الفراء وحيوانات القنص مثل الصقور، وقدموا بها إلى الفلاندرز، كانت الأخيرة قد تمكنت من إحكام قبضتها وفرض سلطتها داخل البلاد، وتمكنت من تجهيز القماش كبديل لسلعهم. كما تمكن الفلمنكيون من وضع الراين Rhine، وروافده تحت تصرفهم من أجل استخدامه كطرق موصلة إلى فرنسا وألمانيا[٣]. وكان لنجاح كونتات الفلاندرز في إقامة حكومة مستقرة وقوية في أواخر القرن العاشر الميلادي وخلال القرن الحادي عشر الميلادي بأكمله أكبر الأثر في تحقيق الاستقرار، حتى كان لهذا الاستقرار والهدوء النسبي أن ازدهرت عملية تصنيع القماش[٤].

كانت هناك أسباب أخرى هيأت للفلاندرز Flanders وفرة إنتاج الصوف منها أنها كانت مهيأة لتربية الأغنام، فقد كانت صناعة الصوف الفلمنكية من أقدم المشاريع التجارية

---

(١) فشر، تاريخ أوروبا العصور الوسطى، ترجمة زيادة والعريني، القاهرة، ط٥، ١٩٦٩م، ص٢٢٥.

(2) Painter, History of the Middle Ages; P. 222.

- Pirenne (H.), Les Villes et les Institutions urbaines, Tome: I, Paris, 1939, PP. 125 – 128.

(3) Painter, History of the Middle Ages; P. 222.

(4) Adelson, Medieval, Commerce, P. 86.

الشمالية التي تميزت بأنها رخيصة الثمن عالية الجودة. وقد صدرت في القرن الحادي عشر مقايضة بالغذاء مع المناطق المجاورة الغنية بالتربة أو مقابل الأخشاب والجلود والمعادن القادمة من الشمال[١]. ثم ما كان من وفرة المواد الخام اللازمة لتلك الصناعة فقد كان الملح يجلب من مصب الراين Rhine، والمينز Mense، حيث كان مفيد في تربية الأغنام، وقد ظلت صناعة الأقمشة داخل الأراضي المنخفضة Low Countries حتى نهاية القرن الحادي عشر الميلادي، معتمدة في صناعتها على المواد الخام المحلية[٢].

كان الفلمنكيون Flemings في منتصف القرن الحادي عشر الميلادي، يبيعون قماشهم في جميع أنحاء شمال أوروبا، وأصبحت مدنهم الرئيسية في بروج Bruges، وغنت Ghent، وليل Lille، ويبرس Ypres، وآراس Arras، مراكز مزدهرة لكل من التجارة والإنتاج[٣].

لكن سرعان ما أصبحت مستنقعات الفلاندرز Flanders المالحة غير صالحة لإنتاج الصوف الخام الذي يسد حاجة الغزالين والحياكين. لذا فقد حمل التجار الفلمنك، القماش إلى المناطق المنتجة للصوف ثم عادوا حاملين الصوف الخام. وكانت جنوب انجلترا هي أكبر مصادر الإمداد لهم في القرن الحادي عشر الميلادي، ولعل السبب وراء ذلك كان الضغط السكاني، الأمر الذي أدى إلى التوسع في صناعة الأقمشة على نطاق واسع، حيث أصبحت هذه الصناعة ضرورة ملحة لحياة الفلمنكيين، نظرا لإحاطتهم بالبحر والأرض الغير كافية لتحمل مثل هذه الكثافة السكانية العالية، لذا فقد اضطرت الظروف الفلمنكيين إلى أن يصبحوا متميزين في صناعة الأقمشة والمنتجين الرئيسيين لذلك[٤]. إلى جانب وجود عامل آخر لازدهار هذه الصناعة ألا وهو ظهور الوكلاء الفلمنكيين الذين انتشروا في الدول المجاورة بحثا عن الصوف. حيث عبروا

---

(1) Hoyt, Cholorow, Europe in the Middle Ages, PP. 267 – 268.
(2) Southern (R.W.), The making of the Middle Ages, London, 1981, P. 45.
(3) Painter, History of the Middle Ages, P. 222.
(4) Adelson, Medieval, Commerce, P. 86.

القنال الإنجليزي للوصول إلى انجلترا التي أصبحت أكبر منتج للصوف، ولها إمكانية كبيرة للتوسع في هذا الاتجاه عن طريق استغلال الأراضي المهجورة في تربية الأغنام.

وفي بداية القرن الثاني عشر الميلادي، أصبح هذان العاملان مهمين لتنمية الميزان التجاري لصناعة الأقمشة الفلمنكية، إلى جانب قيامهم بتيسير وتهيئة الطرق لوصول المواد الخام اللازمة للصناعة، كما كان للتعاون الأنجلوفلمنكي Anglo-Flemish أكبر الأثر بل هو العامل الرئيسي في التاريخ الصناعي للعصور الوسطى[١].

كانت مدينة بروج Bruges في هذه الفترة ولمدة زمنية طويلة تستورد الصوف ثم تقوم بتصنيعه وتعيد تصديره مرة أخرى، وبهذا أصبحت بروج من أهم موانئ البلاد[٢]. وأصبحت العاصمة التجارية المنفذ الخارجي لإقليم الفلاندرز بغلاتها الزراعية والصناعية، إذ عندها يتقاطع محور التجارة الأوروبية. فقد يسر لها موقعها القريب من شاطئ بحر الشمال والمقابل لانجلترا استيراد الصوف الإنجليزي لينسج على الأنوال الفلمنكية والفرنسية[٣]. فقد كانت بروج Bruges مدينة فلمنكية مهمة، ذات موقع متميز حيث وقعت على جدول يتدفق إلى خليج زوين Zwyn في الطريق الجنوبي من دلتا نهر الراين Rhine. الأمر الذي منحها موقعا متميزا على طرق التجارة الرئيسية برا وبحرا، وقد حاولت قبل غيرها من القومونات الفلمنكية الحصول على حريتها في القرن الثاني عشر[٤]. وهو ما نجحت في الحصول عليه قبل عام ٥٨٦هـ/١١٩٠م، حيث منحها كونت الفلاندرز فيليب Philip براءة متضمنة عددا من

---

(1) Southern, The Making of the Middle Ages; PP. 45 – 46.

(2) Adelson, Medieval, Commerce, P. 86.

(٣) محمود عمران، حضارة أوروبا، ص١٦٩.

عن ميناء بروج Bruges وأهميته التجارية. انظر :

Pirenne, Cohen, Focillon, la Civilisation occidentale au Moyen Age; Tome VIII, PP. 127 – 128.

(4) Charter of Bruges: in; Cave, Coulson, A Source Book; P. 207.

الحريات لمواطني بروج، كما كانت بمثابة الدستور أو القانون الذي يتبعه جميع المواطنين، وكان مما اشتملت عليه أنه في حالة إذا ما قرر الوكلاء ورجال بلاط الكونت ضريبة على الخبز والخمور والمواد التجارية الأخرى لتحسين أحوال المدينة، فإن نصف هذا المتحصل يذهب إلى الكونت والنصف الآخر لرجال القصر والمدينة[١]. الأمر الذي يمنح مواطني المدينة فرصة الحصول على نصف المال المجموع لتحسين أحوالها. كما تضمنت منح حق التقاضي، حيث ورد فيها أنه إذا حضر تاجر أو أي أجنبي أمام الوكلاء للحصول على حق له وكان المشكو في حقهم موجودون أو قادرون على الحضور، فكان الوكلاء يمنحونهم من ثلاثة إلى ثمانية أيام حتى يتمكنوا من تلبية طلبهم وإعادة الحق إليهم وفقا لقانون المدينة[٢]. الأمر الذي جعل المدينة تتمتع بحرية قانونية مكنتها من أن تحتل موقع الصدارة بين مدن الفلاندرز الأخرى، كما سهل لها إقامة أسواق تجارية مهمة[٣].

شهد القرن الثاني عشر الميلادي، تحول مدن يبرس Ypres، وغنت Ghent، دواي Douai[٤]، تلك المدن المطلة على ميناء بروج Bruges، إلى أسواق تجارية كبيرة حيث يجتمع التجار لشراء الصوف الإنجليزي وأجود أنواع الأنسجة الفلمنكية. وأصبح الطلب متزايد جدا على الصوف الإنجليزي، كما أصبحت الحاجة ماسة إلى جلب المواد الخام المساعدة واللازمة لصناعة الأقمشة، فكانت السفن تجلب مواد الصباغة اللازمة لتلك الصناعة، مثل ديدان القرمز، والصبغات

---

(1) Kemble (J.M.), The Saxons in England, Vol. II, London, 1876, - About A.D. 1190, Appendix, P. 533.

(2) Kemble, The Saxons in England, Vol. II, A.D. 1190; P. 533.

(٣) بيرين، تاريخ أوروبا، ص٩٩.

(٤) دواي: مدينة تقع شمال فرنسا، في المنطقة الشمالية، حيث تقع على أرض منبسطة عند نهر Scarpe، جنوب مدينة ليل Lille. عنها انظر:

The New Encyclopaedia; Vol. III, P. 636.

الأخرى، واللون القرمزي، والصبغ القرمزي[١]، والصبغ الأحمر من البلاد الشرقية. ومن شمال أوروبا يحمل التجار الفوة[٢]، والوسمة[٣]، إلى مراكز تجار الأقمشة[٤].

نجحت مدن الفلاندرز Flanders التجارية الشهيرة، مثل غنت Ghent، وآراس Arras، كما نجحت بروج Bruges من قبل في الحصول على حريتها مما أدى إلى ازدهارها، بعد أن قامت جماعات التجار بفرض سيطرتهم على الحكومات الرئيسية مع قليل من التدخل من قبل الملك أو أحد الأساقفة أو السادة المحليين. كذلك أصبح لأرباب الحرف حقوقهم، واختفى منها نظام الرق تماما. كما أصبح لهذه المدن نظامها القضائي الخاص بها الذي اعتمد على البينة المدعمة بشهادة الشهود. وبالنسبة للتجار فإن طرق المحاكمة الإقطاعية المعتمدة على عدالة السماء بدت غير مقبولة تماما، كما أن عقوبة جرائم المال العام كانت صارمة وتتم علنا. مثل تسمير أذن السارق في عجلة إحدى العربات ثم تركها تدور. كما أن الرخاء الكبير الذي حققته هذه المدن شجع على القيام بكثير من الأعمال العامة، كتمهيد الطرق وحفر القنوات، إلا أن أهمها كان بناء الأسواق[٥]، الأمر الذي أحدث ازدهارا كبيرا للحركة التجارية داخل تلك المدن. فقد شهدت فرنسا في القرن الثاني عشر الميلادي، نموا وتطورا كبيرا حيث نمت مدينة القديس أومير St.Omer

---

(١) الصبغ القرمزي: يؤخذ من خشب البرازيل ذو اللون الأحمر، ويرد من جزر الهند الشرقية، ويعرف باسم البقم، وموطنه الملايو، وقد عرفه الإيطاليون باسم Berzi أو Barzi وأحيانا Verz . عن ذلك انظر: نعيم زكي، طرق التجارة، ص٢٣٩.

(٢) الفوة: تسمى فوة الصباغين وهو نبات عروقه حمراء وكانت تلك العروق تستخدم في الصباغة. وكانت الفوة تزرع في أوروبا، كما كانت تصل بعض أنواعها لأوروبا من الاسكندرية وقبرص وبلاد العرب. عن ذلك انظر: نعيم زكي، طرق التجارة، ص٢٣٥، وأيضا: عفاف صبره، العلاقات بين الشرق والغرب، ص١٦٩، حاشية (٢٠١).

(٣) الوسمة: صبغ أزرق يستخرج من نبات عشبي أوربي، ويستخدم في الصناعة. عن ذلك انظر: قاموس المورد، ص١٠٧٠.

(4) Rowling, Everyday life in Medieval Times, P. 62.

(٥) بيشوب، تاريخ أوروبا، ص٢١٨.

وواكب تطور اتحاد التجار بها هذا النمو حيث نجحوا في الحصول على براءة متضمنة امتيازات جيدة، كالإعفاء من الرسوم، ودفع إيجار سنوي، وقد أصبح اتحاد القديس أومير St.Omer فيما بعد في القرن الثاني عشر الميلادي، عضوا في مجموعة الهانزا الفلمنكية في لندن Flemish Hanse of London[١] .

وقد منحت تلك البراءة للقديس أومير St.Omer من وليام William كونت الفلاندرز Flanders[٢] عام ٥٢١هـ/١١٢٧م، بناء على التماس قدموه إليه[٣].

كان للعلاقات الاقتصادية بين الفلاندرز وانجلترا أن قامت بينهما تحالفات سياسية والتي كانت تدافع عنها الطبقة البرجوازية في مدن الفلاندرز Flanders، حيث إن ثروتها كانت قائمة على أساس تحويل تجارة المادة الخام من الصوف[٤]. وهو ما نلاحظه في البراءة الممنوحة لمدينة القديس أومير St.Omer، من كونت الفلاندرز، حيث وعدهم بأنه في حالة حصوله على أرض خارج الفلاندرز، أو في حالة عقد معاهدة سلام بينه وبين عمه هنري الأول Henry I (٤٩٤-٥٣٠هـ/١١٠٠-١١٣٥م) ملك انجلترا، سيقوم بإعفاء الأراضي التي يضمها إليه من الرسوم وكذلك جميع أراضي انجلترا، وسيعفيهم من الجمارك كما هو منصوص عليها في المعاهدة[٥]. وهو ما كانت تسعى إليه نقابات التجار في جميع مدن أوروبا العصور الوسطى، من أجل خدمة مصالحهم الاقتصادية، والحصول على أعلى ناتج من الربح.

وبما أن الموقع الجغرافي قد أحاط الفلاندرز Flanders بوضع خاص، حيث منحها العديد من الموانئ والمحطات المائية المهمة التي استغلتها في ممارسة التجارة، وجعلها أكبر مصدر لصناعة الأقمشة في شمال أوروبا، لذا فقد سعت إلى تحسين تلك

([1]) A Charter for the town of St. Omer. In: Cave, Coulson, A Source Book; P. 200.

([٢]) وليام كليتو William Clito تم انتخابه كونتا على الفلاندرز Flanders بناء على رغبة الملك لويس السمين في عام ٥٢١هـ/١١٢٧م. عن ذلك انظر:

Cave, Coulson, A Source Book, P. 200.

([3]) Kemble, The Saxons in England, Vol. II, A.D. 1127, P. 528.

([4]) Gouvard, la France au Moyen Age, PP. 274 – 275.

([5]) Kemble, The Saxons in England, Vol. II, A.D. 1127, P. 528.

الموانئ والمحطات. ونظرا لأن العديد من مجاري ومسالك المياه التي كانت تمتلكها الفلاندرز Flanders كانت تستخدم في وقت مبكر من أجل نقل السلع الغذائية والبضائع. فلم يكن من الغريب أو العجيب أن نرى هذا النشاط والفاعلية المذهلة القائمة في هذا البلد، خلال القرن الثاني عشر الميلادي، من خلال التجارة والصناعة. ولكن حتى يكون من المستطاع استخدام هذه الأنهار كوسائل للنقل، كان لابد من عمل بعض الأعمال الفنية كالقيام بالتحكم في حركة المد والجزر من خلال مخاضة تتأرجح ارتفاعا وانخفاضا مع مستوى المياه، حيث نتيجة لعدم ارتفاع سهل الفلاندرز Flanders فكان يخضع ويتعرض لاضطرابات في المد والجزر في مساحة كبيرة من شواطئه. ومن جانب آخر، كان ينبغي الحفاظ على هذه المياه في عمق ثابت ومستقر، لضمان سهولة الملاحة طوال الفصول الأربعة للسنة. فكان من الضروري حفر العديد من القنوات تكون تكلفة العبور فيها منخفضة[1]. الأمر الذي أسهم في زيادة صادراتهم من جهة، وسهولة قدوم التجار إلى أسواقها التجارية من جهة أخرى، إذ أنه خلال القرن الثاني عشر الميلادي، صار سكان كل إقليم الفلاندرز Flanders يعملون في نسج وصناعة الأقمشة الصوفية. وقد ظلت صناعة الملابس – التي لا زالت تشتهر بها هذه البلاد حتى الآن – محصورة في المدن التجارية التي أسست وتسببت في نمو زائد لهذا الإقليم.

أدت صناعة الأقمشة إلى زيادة ثروات المدن الوليدة مثل غنت Ghent، وبروج Bruges، ويبرس Ypres، وليل Lille[2]، وداوي Douai، وآراس Arras. وسرعان ما تحولت هذه السلعة البحرية إلى سلعة برية مهمة.

---

(1) Pirenne (H.), Les Overdraghes et les Portes d'eau en Flander au XIII Siècle, in essays in Medieval History, Presented to Tomes – Frederch Tout, Manchester, 1925, P. 139.

(2) ظلت ليل Lille إلى الآن تشكل أكبر مدينة لصناعة المنسوجات في فرنسا، والمركز الرئيسي لصناعة القطن، لكنها تصنع كذلك الصوف والكتان والرايون أيضا، كما تنتج الآلات كعاصمة إقليمية، وتصنع المواد الغذائية والكيماويات، وهي ثاني مدن فرنسا بعد باريس في صناعة الملابس الجاهزة. عن ذلك انظر: جودة حسنين جودة، قارة أوروبا، ص١٥٣-١٥٤.

ومنذ بداية القرن الثاني عشر الميلادي، كانت الملبوسات الفلمنكية تحمل بحرا إلى أسواق نوفجورد Novgorod[1] في الوقت الذي يقدم فيه الإيطاليون إلى الفلاندرز ليشتروا مقايضة بما معهم من توابل وحرير ومشغولات ذهبية وأشياء جاءوا بها من جنوب الألب. بل إن الفلمنكيين أنفسهم ترددوا على أسواق شامبني الشهيرة، التي تقع عند منتصف الطريق بين بحر الشمال والألب، وقابلوا هنالك مشترين من لمبارديا Lomardy وتسكانيا Tuscany. وقد قام هؤلاء بحمل الملبوسات الفلمنكية بكميات هائلة إلى ميناء جنوة Genoa تحت اسم "الطيالسة الفرنسسكانية Panni Francesi" ثم أخذوها عن طريق البحر إلى موانئ الشرق البعيدة[2]. وكانت بروج Bruges أشهر مدن القسم الغربي من العصبة الهانزية Hansentic League، وهي عبارة عن مدن أوروبا التجارية التي كونت فيما بينها في القرن الثاني عشر الميلادي، أحلافا مختلفة سماها الألمان هانزا Hanses أي اتحادات أو نقابات، تهدف إلى تشجيع التعاون الدولي ضد المنافسة الخارجية وحماية أنفسهم من القراصنة وقطاع الطرق وتقلب العملة وجباة الضرائب والمكوس الإقطاعية[3].

وقد لعب التجار الألمان دورا كبيرا في التجارة في القرن الثالث عشر الميلادي، وربما كانت أعظم من التجارة التي توفرت لأي شعب آخر ما عدا الإيطاليين. وكانت كل أوروبا من حدود Flanders إلى حدود السالف Saleph[4] البعيدة قد انفتحت على تجارتهم[5]. وكانت مدينة كولونيا Cologne[1] قد سيطرت بقوة على التجارة

---

(1) مدينة Novogorod تعني بالاسكندنافية Holmgaror، أي "مدينة البحيرة" ، وتقع في إقليم البحيرات الروسية، بناها الروس واتخذوها مقرا لهم. انظر: ليلى عبد الجواد إسماعيل، تاريخ الروس من خلال المصادر العربية، دار الثقافة العربية، القاهرة، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، ص٢١.

(2) بيرين، تاريخ أوروبا، ص٣٩-٤٠.

(3) محمود عمران، حضارة أوروبا، ص١٦٩. لمزيد من التفاصيل عن العصبة الهانزية انظر: ص٣١٨-٣٢٤ من البحث.

(4) نهر السالف Saleph: كان يسمى في التاريخ القديم Calycadnus وهو نهر في الأراضي التركية. عنه انظر: Setton, A history of the Crusades, vol. II., P. 799.

(5) لقد أسهمت مختلف المدن الألمانية وبخاصة في الشمال في النشاط التجاري منذ القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، فانصرف تجار مدن الشمال الغربي – وعلى رأسها كولونيا – نحو =

على طول الراين، وحققت تفوقا سريعا. مما دفع الفلمنكيين إلى التفوق في إنتاج الأقمشة حتى يحموا تجارتهم من أي منافسة تسبب لهم ضررا في الوقت الذي لعب فيه أهل كولونيا Cologners دور الوسطاء في المتاجرة مع جنوب ووسط ألمانيا[٢].

ونظرا لذلك فقد تم منح الفلمنكيين امتيازات في كولونيا Cologne حيث اتفق تجار هذه المدينة وتجار الفلاندرز Flanders على أن أي فلمنكي يستعد لترك المدينة برا أو بحرا وكان لأحد دين عنده ويوجد شهود على ذلك فعليه أن يثبت ذلك وفقا لقانون كولونيا، ولا يكون ذلك عائقا له، ولكن إذا لم يكن عنده شهود فإن المتهم الذي لم يكن معتديا أو عطل العدالة، فيمكنه أن يحصل على البراءة بأداء القسم بأنه برئ وسيكون بذلك حرا. ولا يجبر أحد من أهل الفلاندرز على القتال أو المبارزة أو التوجه إلى ساحة القضاء المعروف باسم Ordeal إلا إذا ارتكب جريمة القتل أو قام بجرح أي

=

الغرب واتخذوا من بروج Bruges بالفلاندرز، ولندن بانجلترا مراكز أساسية لعمليات التبادل التجاري. عن ذلك انظر: سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج١، ص٥٩٥-٥٩٦.

(١) تعد كولونيا Cologne أفضل مدينة ألمانية مدعمة بالوثائق في هذه الفترة.

- Nicholas, The evolution of the Medieval World; P. 301

من تلك الوثائق:

العلاقات الخارجية للاتحادات الألمانية

- The External Relations of German Hanses, Protection of the Men of Cologne at London, in: Lappenberg (J.M.), Urkundliche Geschichte des Hansischen Stahlhofes zu London, Part: II, Hamburg, 1851, - A.D. 1157, P. 3.

امتياز رعايا كولونيا في لندن

- Privilage of the Men of cologne at London; in: Lappenberg, Urkundiche Geschichte des Hansischen, Part: II, A.D. 1157, P. 4.

امتيازات رعايا كولونيا في انجلترا

- Tax Privileges of the Men of Cologne in England; in: Lappenberg, Urkundliche Geschichte des Hansischen, Part: II, Hamburg, 1851, A.D. 1194, P. 5.

(2) Adelson, Medieval, Commerce, P. 86.

شخص أو لقيامه بتزوير الأموال أو انتهاك السلام. كما نصت الامتيازات على عدم إجبارهم على تسديد ديون غير التي تعهدوا بتسديدها[١]. الأمر الذي يدل على مدى نشاط تجار الفلاندرز Flanders، وحرصهم على الحصول على أكبر قدر ممكن من الامتيازات داخل مدنهم وخارجها، مما يخدم مصالحهم التجارية.

وقد أدى هذا النشاط إلى تطوير صناعتهم المزدهرة، فقد حولوا الطيلسان القديم الصغير إلى قطع من الملابس الطويلة، التي صارت عليه منتجات الملابس حتى اليوم. وهناك سبب طيب آخر لافتراض حدوث مثل هذا التغيير في ذلك الوقت، وكان ذلك في الأنواع التي يستخدمها النساجون، ألا وهو تغيير مقاس سداة النسيج من عشرين إلى ستين ذراعا[٢]، حتى تتواءم مع العارضة الخشبية للنول[٣]. كما اعتادوا على أن تتوافر الجودة في أقمشة التصدير، وفي صباغتها وباشروا الإشراف على هذه العمليات حرصا منهم على زيادة حجم البيع، لذا فلم يحل القرن الثاني عشر الميلادي، حتى صار لتجار الفلاندرز Flanders دون منازع السيطرة على أسواق أوروبا، لما اشتهرت به منسوجاتهم من الدقة وجمال الألوان[٤]، وقد اتضح أن مراكز الحركة التجارية المزدهرة في أوروبا في القرون الأولى للعصور الوسطى تركزت في الأراضي المنخفضة وفي شمال فرنسا في مركزين رئيسيين وهما الموانئ والأسواق التي اتسمت بفترات مؤقتة، إذ سرعان ما ينتهي النشاط التجاري عند انتهاء المعرض. الأمر الذي لم يؤد إلى نهضة حقيقية للمدن. ففي الفلاندرز، على سبيل المثال، لم يوجد هناك أي مواطن مسيني Messines، أو من ثوروت Thourout، أو أي مركز للمعارض يتسم بالاستمرارية والشهرة حتى نهاية القرن الثالث عشر الميلادي، ولم تصل بعد إلى درجة عليا ولم يتعد التعامل مع الطبقة البورجوازية الوسطى، ولم يكن هناك ما يحل محل هذه المعارض. وفي الواقع فإن الموانئ تختلف عن السوق الذي

---

(1) Fagniez, Gustave, Documents Relatifs à L'Histoire de L'industrie et du commerce en France, Vol. I, Paris, 1898, A.D. 1197, P. 97.

(٢) الذراع: تساوي ٥٤.٠٤سم. وهناك عدد كبير من الأذرع في الإسلام ، إذ أن مقاييس الذراع تختلف من دولة لأخرى. انظر: فالتر هنتس، المكاييل والأوزان الإسلامية، ص٨٣-٨٤.

(٣) بيرين، تاريخ أوروبا، ص٤٨.

(٤) السيد الباز العريني، الحضارة والنظم، ص١٧٨.

يتسم بالمرحلية، بينما تتسم الموانئ بالاستمرارية، حيث تظهر لنا كمكان دائم. وقد أطلق لفظ الميناء على المكان الذي يعطي خصوصية أو حرية للمرور التجاري، حيث تمر به عادة البضائع التي يحملها التجار الجائلون، بينما يتم إنشاء المعرض عن طريق منحة أو براءة من السلطة الحاكمة. وفي وجود الميناء لابد من حدوث التطور الطبيعي للحركة الاقتصادية. فهو يحتوي على مباني صغيرة نستطيع أن نطلق عليها احتياطي داخلي، ونرى ذلك في بروج Bruges أو عند ممر لنهر مثل فالنشيان Valenciennes، وفي ملتقى منبعين من الماء [نهرين] مثل غنت Ghent، أو نهر ليس به ملاحة مثل دواي Douai، فالمراكب التي تمر بهذه الأنهار لابد أنها تحمل بضائع ضرورية. وتتدخل الدولة لتحصل الرسوم المالية، فتقوم بفرض ضريبة على المرور، وأجرة على النقل. إلى جانب أن وجود الميناء يدعم النشاط التجاري بشكل كاف، ولا يقتصر ذلك على التجارة المحلية فحسب، وإنما أيضا على التجارة العالمية المستمرة. تلك التجارة التي لا يمكنها أن تزدهر إلا في المناطق التي بها تجار متمرسون وعبر الطرق البرية والأنهار[1]. الأمر الذي يظهر لنا مدى الأهمية التي حازتها الفلاندرز Flanders من وراء تمتعها بالموانئ المهمة، مما انعكس بالتالي على تجارتها وعلى تحقيق الازدهار لها. إذ من السهل معرفة أن الميناء يشكل أداة جذب للناس، خاصة لمن يعملون في الشحن والتفريغ للبضائع، وبناء وتجهيز السفن للنقل عبر النهر حيث كان التجار يعملون فيها لتحقيق الربح والفائدة.

وإذا كانت موانئ الفلاندرز قد تعرضت لفترة من الدمار والخراب من جراء الهجمات النورمانية Normandes حيث تحطمت معظم السفن وغرقت في الأنهار وذلك في النصف الثاني من القرن التاسع الميلادي، وتحرك القراصنة بدلا من التجار، إلا أن التجار سرعان ما عادوا للظهور مرة أخرى بعد انسحاب النورمان Norman مما أذن بميلاد جديد للنشاط التجاري وحركة الملاحة مما أدى إلى ظهور الموانئ، التي عادت إليها الأساطيل التجارية. وعند ظهور الإقطاع في القرن العاشر الميلادي حلت سلطة الأمراء الإقطاعيين محل السلطة الملكية مما أدى إلى تعرض التجار للأخطار، وأصبح الهدف الأكبر هو الحصول على الحماية، التي لم تتحقق إلا عن طريق الأفراد أنفسهم. وكان

([1]) Pirenne, Les Villes et Les Institutions, P. 133.

المطلب الآخر هو تحقيق الأمن للموانئ، وإقامة منشآت تجارية بها، وكذلك مخازن لكل سوق. وجميع هذه المطالب كانت صعبة التحقيق في ظل النظام الإقطاعي لذلك وجد بديل للموانئ، تمثل في الإقامة بجوار الحصون التي كان يبنيها أمراء الفلاندرز Flanders داخل المدينة نفسها. ولم يتوان التجار عن السعي إلى الإقامة فيها. ففي كل مكان تفاعل الوضع الجغرافي مع متطلبات التجار، فثبتت المجموعة أقدامها في أواخر القرن العاشر الميلادي، من خلال التكتل التجاري حتى ظهرت مجموعة من الموانئ، وذاع صيتها، وكثرت أمام ما يجاورها من القلاع Castrum. حيث وجدت في Lambres، ودواي Douai، وليس هناك ما يدل على أن هذا النمط لم يكن معروفا من قبل، كما أن الأسواق لم تتأثر بوضع الموانئ القديم. إذ في بلد به مسطحات مائية وأخاديد مثل الفلاندرز Flanders، وأماكن تصلح لاتخاذها مقرا للدفاع عن تلك الأرض، كان لابد أن تكون طرقا تجارية مهمة. وفي كل الأماكن التي وجدوا بها كانت هناك حصونا لحمايتهم. الأمر الذي جعل الفلاندرز، يشهد منذ القرن العاشر الميلادي، ظهور عدد كبير من مجموعات التجار. حيث وجد هناك عنصران مختلفان لكنهما متكاملان بطبيعتهما، فقد اتحدت القلعة Castrum والميناء Portus، مع بعضهما البعض. وهو ما حدث بسلاسة في بروج Bruges، وغنت Ghent، وليل Lille، ودواي Douai، والقديس أومير St.Omer، وهو ما لاحظناه في كثير من الأماكن المحلية الأخرى[1]. الأمر الذي منح الفلاندرز Flanders موقعا جغرافيا متميزا أهلها لأن تكون مركزا رئيسيا من مراكز صناعة الأقمشة في أوروبا العصور الوسطى، تلك الصناعة التي تخصصت فيها أوروبا، حتى أصبحت الملابس المصنوعة من الصوف هي أكبر صادرات أوروبا. ففي عام ٧١٣هـ/١٣١٣م تم ختم اثنين وتسعين ألفا وخمسمائة (٩٢.٥٠٠) ختم في مدينة يبرس Ypres ليثبت على بطاقات الملابس الصوفية[2]. حيث تمكنت المدن الفلمنكية وشمال فرنسا، من خلال

---

(1) Pirenne, Les Villes et les Institutions; PP. 134 – 135.

(2) Mundy, J.H., Europe in the High Middle Ages 1150 – 1309, London, 1993, PP. 90 – 91.

الصوف الخام الذي كانت تستورده من انجلترا أو من شامبني أو من أرتوا Artois أن تغزل الملابس الصوفية لجميع شمال أوروبا. ولقد قدر عدد المشتغلين من سكان الفلاندرز Flanders، في نهاية القرن الرابع عشر الميلادي، بنصف السكان يعملون كغزالين، وقصارين، وصباغين. وكانت أهم المراكز هي غنت Ghent، وبروج Bruges، ودواي Douai، ولوفان Louvain، ويبرس Ypres، وتورناي Tournai، وآراس Arras، وليل Lille، والقديس أوميير St.Omer، وكامباري Cambrai، وفالنشيان Valenciennes، وآبي فيل Abbeville، وآمينز Amiens، وبوفييه Beauvais، وسانت كوانتين St.Quentin، وريمز Rheims، وشالون Chalons[1].

يتضح لنا ما سبق أن الفلاندرز Flanders تمتعت بموقع جغرافي مميز فكانت بحكم موقعها هذا بين الشمال والجنوب تتاجر في حاصلات المنطقتين إلى جانب ما تميزت به من صناعة الأصواف وغزلها[2]. الأمر الذي مكنها من إقامة أسواق تجارية مهمة، كانت مماثلة لأسواق شامبني، وقد أقيمت أسواق الفلاندرز الخمس في بروج Bruges، ويبرس Ypres، وثوروت Thourout، ومسينا Messine، وليل Lille، عند نهاية الخط الذي يبدأ منها إلى بحر الشمال[3]، وبحكم هذا الموقع أصبحت مركزا للنشاط التجاري المزدهر في الشمال، بفضل موانيها وأنهارها المهمة التي مكنتها من الاتصال بشمال أوروبا ووسطها وجنوبها[4]. الأمر الذي كان له أكبر الأثر في ازدهار الحركة التجارية بها برغم تفاوت حجم الأسواق التجارية داخلها وتفاوت أهميتها كذلك. إذ تمتعت الفلاندرز Flanders بوجود مدن داخلها مثلت مراكز تجارية نشطة للغاية مثل غنت Ghent[5] وغيرها من المدن التجارية المهمة.

([1]) Thompson, Johnson, Medieval Europe, P. 566.

([2]) سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج٢، ص٩٩-١٠٠.

([3]) بيرين، تاريخ أوروبا، ص١٠٠.

([4]) سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج٢، ص٩٣.

([5]) عن غنت Ghent في نهاية العصور الوسطى. انظر:

See: Armstrong, Ivana, Martin, Maney, Market's and trade; P. 538.

(٣) الأسواق اللومباردية : الموقع وأثره على ازدهار الحركة التجارية :

تمتعت إيطاليا، بصفة عامة، بموقع جغرافي متميز أهلها للدور المهم الذي لعبته في أوروبا العصور الوسطى، خاصة فيما يتعلق بالناحية الاقتصادية. فقد كان لهذا الموقع أكبر الأثر في ازدهار الحركة التجارية داخل إيطاليا بصفة خاصة، وخارجها نظرا للنشاط التجاري الذي حققته لأوروبا طوال العصور الوسطى. فقد اكتسبت شبه الجزيرة الإيطالية أهمية كبرى بسبب موقعها الجغرافي، فهي تقع في جنوب أوروبا مطلة على البحر المتوسط[١]، الذي قامت على ضفافه أقدم الحضارات وأعرقها، وفي وقت كان فيه هذا البحر مركز النشاط الاقتصادي في العالم. وكانت المدن الإيطالية هي حلقة الاتصال بين أوروبا وبين الحوض الشرقي للبحر المتوسط وبلاد الشرق، وكانت بفضل موقعها من أقرب الأقاليم الأوروبية إلى الدولة البيزنطية[٢]. مما يسر لها، هذا المركز المتوسط بين الشرق والغرب، الاستفادة أكثر من كل الدول بالتجارة مع أوروبا وبيزنطة والشام وسائر بلاد المسلمين.

كانت لإيطاليا مدنا مهمة تقع على الأدرياتي مثل البندقية Venice، ورافنا Ravenna، وأنكونا Ancona، وباري Bari وغيرها من المدن، وكانت أنهار إيطاليا تنقل بعض هذه التجارة إلى داخل القارة الأوروبية، لذلك ازدهرت المدن الإيطالية خاصة جنوة Genoa، وبيزا Pisa، والبندقية Venice[٣]. وإذا كان هذا الموقع قد منح تلك المدن انتعاشا لتجارتها البحرية إلا أنه قد صحب هذا الانتعاش التجاري البحري انتعاشا سريعا في داخل القارة. ولم يكن ذلك بسبب الحاجة إلى التبادل التجاري للزراعة والحاصلات الزراعية فحسب، وإنما أيضا للحاجة إلى المصنوعات الجديدة التي صارت معدة للتصدير.

ولقد كان السبق لسهل لومبارديا Lombardy في كلا الاتجاهين، بسبب موقعه

---

(١) جودة حسنين جودة، قارة أوروبا دراسات في الجغرافيا الإقليمية، ص١٨٧.

(٢) عبد العزيز محمد الشناوي، أوروبا في مطلع العصور الحديثة، ج١، ط٢، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٥م، ص٢٧.

(٣) محمود عمران، حضارة أوروبا، ص١٦٧.

المتميز بين مراكز القوى التجارية الثلاثة البندقية، وبيزا، وجنوه. فلقد أسهم الريف والمدن بالتساوي في الإنتاج، الأول بغلاله وبنبيذه، والآخر بملابسه ومنسوجاته الكتانية والصوفية[١].

فقد تمتعت منطقة لومبارديا Lombardy[٢] بصفة خاصة، بموقع جغرافي فريد، حيث كانت لومبارديا بالكامل تقع بين جبال الألب Alps، والأبنين Apennines، وقد اتصلا سويا بواسطة شريانه الطبيعي، وبنهر البو Po وروافده التي تتفرع عنه.

نشطت التجارة على طول هذه الممرات المائية، والتي ظلت أرخص أشكال النقل. وكانت المخارج التجارية إلى الشمال ممثله في سلسلة الممرات الألبية Alpine مثل مونت سيني Mont Cenis ومونت جينيفر Mont Genevre، التي تصب في سهل Susa في أرض كونت سافوي Savoy، والقديس برنارد St.Bernard، أما الجنوب فكانت المخارج الرئيسية ممثلة في موانئ البندقية Venice وجنوة Genoa. ففي البندقية كان مكان التقاء التجارة الواردة من البو Po وبرنارد Brenner وتلك الواردة من الشرق. وفي جنوة كانت تجارة البحر بالمثل تقابل تلك القادمة من الممرات الألبية الغربية، والتي تركزت على الطريق إلى آستي Asti، وفيرسلي Vercelli. إلى جانب وجود أيضا مخارج برية إلى الجنوب.

ومن بياكنزا Piacenza على نهر البو يوجد طريق إيميليان Emilian الذي يمر بمجموعة من المدن المزدهرة حتى يصل إلى ريمني Rimini على الأدرياتيك Adriatic وعن طريق هذه المدينة يمكنهم الوصول إلى الطريق الذي يعرف باسم طريق فرنسيانا Via Francigena والذي يتفرع منه طريق بري إلى

---

(١) بيرين، تاريخ أوروبا، ص٣٧.

(٢) حكم سهل لومبارديا، الواقع شمال أوروبا، دولة اللومبارديين Lombards وهم قبيلة ألمانية شديدة البأس نجحت في تكوين تلك الدويلة هناك، في ظل الفوضى التي عانت منها إيطاليا نتيجة لهجمات البرابرة والقراصنة وقطاع الطرق، وظلت قائمة قرابة قرنين من الزمان واتخذت من بافيا Pavia عاصمة لها. عن ذلك انظر: جودة حسين جودة، قارة أوروبا دراسات في الجغرافيا الإقليمية، ص١٨٨.

مدينة بارما Parma التي توصل إلى طريق فلورنسا Florence، وفرع آخر بعيد يتجه إلى بولونيا Bologne، وطريق إلى فلامينيان Flaminian ومن رميني Rimini إلى روما Rome وقد حققت تلك المواقع المهمة على هذه الطرق ثروة وريادة لجميع المدن التي تقع عليها. وكان هدف كل مدينة هو السيطرة على جميع المداخل والمخارج الموجودة في المناطق الجبلية والبحرية[١]. وإلى الغرب كانت جنوة Genoa، التي كان لها السبق في السيطرة على شاطئ الريفيرا الضيق Riviera وخلفها يقع جبل الأبنين Apennines الذي يعتبر سدا منيعا. وكل ما يجب أن تتيقن منه جنوة أن التجارة التي تتدفق عليها بكثرة من المراكز التجارية، كانت في حاجة إلى جنوة أكثر من حاجتها إلى هذه المراكز[٢]، لأنها مثلت أهم موانئ سهل ليجوريا Liguria، ذلك السهل الذي يقع خارج نطاق السهل اللومباردي فعليا ولكنه يتصل بالنشاط الاقتصادي والتجاري به عن طريق فتحات في الألب الليجورية، إضافة إلى أن ميناء جنوة هو ثاني موانئ إيطاليا وله مرفأ جيد[٣]. الأمر الذي يجعلنا ندرك أهمية موقع السهل اللومباردي، وما حققه للمدن الواقعة في نطاقه من ازدهار تجاري. حتى أن التجار الإيطاليين قد تواجدوا في فرنسا منذ النصف الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي، بل والأكثر احتمالا أنهم كانوا يترددون على أسواق شامبني في هذه الفترة وشاهدوا هناك التدفق التجاري من ساحل الفلاندرز[٤]. إذ منذ مستهل القرن الثاني عشر الميلادي على أكثر تقدير، نمت حركة تجارية نشطة للغاية بين المدن التجارية الواقعة على ساحل إيطاليا الغربي وجنوب فرنسا[٥]. إذا فإن الموقع الجغرافي للسهل

---

(1) Cam. Med. Hist; Vol. 5, P. 229.

(2) Cam. Med. Hist; Vol. 5, P. 229.

(٣) جودة حسنين جودة، قارة أوروبا دراسات في الجغرافيا الإقليمية، ص٢١٨.

(٤) بيرين، تاريخ أوروبا، ص٣٧.

عن المدن الإيطالية والثورة التجارية البحرية الكبرى. انظر:

Halphen, Peuples et Civilisations histoire générale; PP. 82 – 88.

(٥) هايد، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى، ج١، ص١٩٦.

=

اللومباردي كان وراء الدور المهم الذي لعبته مدن هذا السهل في التجارة العالمية على محاورها المختلفة، حيث أهلها لأن تكون الوسيط التجاري بين الشرق والغرب بسلعهما المختلفة، وبين شمال وجنوب أوروبا كذلك. على أن دورها لم يقتصر على الوساطة التجارية فحسب، بل إن اضطلاعها بذلك الدور انعكس بالتالي على تجارتها الداخلية حيث أدى إلى ازدهار الحركة التجارية بها، وبما أن الأسواق أو المعارض مثلت دائما البوتقة التي تحتضن مثل هذا النشاط، خاصة وأن المعارض أقيمت غالبا لتجارة الجملة، وتعقد مرة واحدة في السنة، أو على الأقل لا تقام في نفس العام إلا نادرا، ويؤمها الناس من كل مكان[١].

لذا فقد كانت مدن هذا السهل أهلا لقيام مثل هذه المعارض التجارية بها بصرف النظر عن احتياجات المنطقة المقامة بها. وقد كان موعد انعقاد الأسواق التجارية الكبرى يتوافق مع موعد قدوم القوافل التجارية من الشرق، من ذلك أنه كان لزاما على البنادقة أن يتوجهوا بسفنهم، القادمة من الشرق إلى موانئ البندقية أولا حيث تعقد بها الأسواق ومنها توزع بعد ذلك على باقي مدن أوروبا[٢]. الأمر الذي يجعلنا نجزم بما لا يدع مجالا للشك، بأن معظم مدن السهل اللومباردي قام بها أسواق تجارية كبرى، خاصة في مدنه التي حازت شهرة عالمية كالبندقية وغيرها. حيث تمتعت مدنه برخاء اقتصادي نتيجة اشتغالها واحتكارها التجارة الشرقية، إذ كان تجار أهالي هذه المدن

=

ليس أدل على ذلك من شهادة الرحالة بنيامين التطيلي، الذي زار مدينة مونبليه Montpellier إحدى مدن فرنسا المهمة آنذاك – عام ١١٦٦-١١٦٧م وأكد على مدى الرخاء الذي تمتعت به المدينة حيث تمتعت بحشود تجارية عظيمة من مختلف الأقطار من الغرب والشرق أيضا. إلا أنه ذكر أن المدينة كانت تدين برخائها إلى وجود التجار الجنويين والبيزيين بها. وكان هذا هو السبب في نجاح أسواق سان جيل St.Gille ، وفيرجوس Fréjus، فقد ثبت بأدلة كثيرة أن الجنويين والبيزيين كانوا يتجرون بها. عن ذلك انظر: هايد، تاريخ التجارة، ج١، ص١٩٦.

عن وصف بنيامين التطيلي لتجارة مونبليه وأحوالها انظر:

Asher, The Itinerary of Rabbi Benjamin of Tudela, PP. 3, 20 and 105 – 106.

(1) Jarrett, Bede, O.P., Social Theories of the Middle Ages, P. 164.

(٢) عفاف صبره، العلاقات بين الشرق والغرب، ص١٢٢.

ينقلون المتاجر من ثغور مصر والشام إلى الموانئ الإيطالية، ومنها توزع على الأسواق في سائر البلاد الأوروبية، مما زاد من ثراء أهالي هذه المدن[١].

إذا فإن محطة رسوهم الأولى كانت تتمثل في مدنهم بموانيها المختلفة ثم بعد ذلك تبحر منها لتوزع على سائر الأسواق الأوروبية المشهورة كشامبني والفلاندرز وغيرها.

كما كان للعامل الجغرافي كذلك، بالنسبة لإيطاليا، أكبر الأثر في اتجاه الإيطاليين إلى احتراف التجارة، ذلك لأنه لم يكن بها ظهير واسع من الأراضي يصلح للزراعة مما جعلهم يتخذون التجارة وسيلة لكسب عيشهم[٢]. الأمر الذي يظهر قيمة العامل الجغرافي وتحكمه في تحديد مصائر الشعوب، فلولا الموقع الجغرافي لإيطاليا ما كانت بلغت تلك المكانة التي حازتها في التجارة العالمية وجعلتها تفوق أي بلد أوروبي آخر.

والواقع أن الزائر القادم إلى إيطاليا من الشمال إلى السهل اللومباردي آنذاك لا يستطيع إلا أن تتملكه الدهشة مما يرى من قنوات مائية متشابكة، وتجارات ضخمة، ونظم مالية عالية، وصناعات راقية، ومدن كثيرة مزدحمة بالسكان تجاور بعضها بعضا، ولا تفصل الواحدة منها عن الأخرى إلا مسافة قريبة، كلها تخبر بمظاهرها العامة والخاصة من المباني والعمائر والأسواق عن غنى وأبهة ورقة[٣].

ومن أمثلة تلك المدن التي حازت على تلك الصفات السابقة، مدينة ميلان Milan التي قدم لها بونفزان داريفا Bonvesin de Riva[٤] وصفا دقيقا

---

(١) عبد العزيز الشناوي، أوروبا في مطلع العصور الحديثة، ج١، ص٢٤.

(2) Adelson, Medieval, Commerce, PP. 71 – 72.

السيد الباز العريني، الحضارة والنظم الأوروبية، ص١١٦-١١٧.

(٣) فيشر، تاريخ أوروبا العصور الوسطى، ج٢، ص٤٢٢.

(٤) هو أحد كتاب القرن الثالث عشر الميلادي الذي كتب بالإيطالية واللاتينية، وباللهجة الميلانية. واكتسب لنفسه من خلال عمله الأدبي شهرة متواضعة ولكن محترمة. يعتقد الآن بشكل عام أن

=

ومفصلا، في عام ٦٨٧هـ/١٢٨٨م، ورد في ثلاث وثائق اشتملت على مدح لميلان، فذكر تعداد سكانها، إلى جانب حديثه عن خصوبة أرضها ووفرة كل البضائع بها[١]، مما ورد فيها أن عدد سكانها مائتا ألف نسمة، وبأن بها خمسين ألفا من الرجال القادرين على حمل السلاح، وأربعمائة كاتب، ومائتي طبيب، ومثلهم من المحامين، وثمانين مدرسا، وخمسين من النساخين والوراقين والكتبة، وستين بيتا من بيوت النبلاء الأغنياء، ومائة وخمسين من قصور الريف، ومثلها من القرى الملحقة بها، وثلثمائة من الجزارين، وثلثمائة من الخبازين، وألفا من المزارعين، أصحاب الأراضي التي تمد السكان بالغلال والخضر والفواكه[٢]. الأمر الذي يدل على ما بلغته مدينة ميلان Milan عام ٦٨٧هـ/١٢٨٨م من غنى ومكانة تجارية عظيمة، وليس أدل على ذلك من أن ممثلي السجل التجاري (الكتبة التجاريون) بها بلغوا أكثر من ألف وخمسمائة كاتب، من بينهم الكثيرين جدا الذين امتازوا بإبرام العقود[٣]. إذ أن وجود مثل هذا العدد الكبير من الكتبة التجاريين يدل على مدى الرواج التجاري لمدينة ميلان، وهو ما انعكس بالتالي على أسواقها.

إن ما سبق لا يدع مجالا للشك عن ضرورة وجود أسواق تجارية داخل ميلان حتى تستوعب الحركة التجارية القائمة بها. حيث بدت ميلان في وفرة من المال والجاه كذلك، بفضل زراعتها الوفيرة، وخيولها المنقطعة النظير، وأقمشتها الحريرية، ومنسوجاتها المطرزة، ووضعها الجغرافي عند بداية طريق تجاري مهم يخترق جبال الألب إلى جوف أوروبا ومدنها التجارية، وهذا كله فضلا عن صناعتها الحربية التي

=

بونفزان Bonvesino بذل قصارى جهده للحصول على بيانات موثوق بها من مصادر عليمة إلى درجة كبيرة وأنه استخدم قدرا من التمييز في وزن الأدلة.

See: Lopez, Raymond, Medieval Trade; PP. 60 – 61.

(1) Milan, 1288, in Praise of Milan's Housing, in Praise of Milan's Population, in Praise of Milan's Fertility and Abundance of All Goods. In; Lopez, Raymond, Medieval trade; PP. 60 – 69.

(٢) فيشر، تاريخ أوروبا العصور الوسطى، ج٢، ص٤٢٢-٤٢٣.

(3) Lopez, Raymond, Medieval Trade; P. 65.

أمدت جيوش الدول المختلفة بأنحاء المعمورة بأنواع السلاح والعتاد الحربي، دون اعتبار للفوارق الدينية.

ومن الواضح أن حكام ميلان استطاعوا – في سهولة وسرعة – أن يجعلوا أنفسهم أغنى أسرة في أوروبا[١]. فقد قدم لنا بونفزان Bonvesin شهادة وثائقية عن معارض وأسواق ميلان، حيث ذكر أن المدينة شهدت إقامة أربعة معارض عامة تقام كل عام، وهي كالتالي، في يوم تنصيب القديس امبرواز المبارك Blessed Ambrose، وفي عيد القديس لورانس Blessed Lawrence، وفي عيد مريم العذراء أم الإله "حسب زعمهم"، وفي عيد بارثليمو المبارك Blessed Bartholomew حتى أصابت الدهشة معظم المشاهدين من جراء أعداد التجار الهائلة التي لا تحصى مع هذا الكم الكبير من البضائع والمشترين الذين تجمعوا في كل هذه المعارض. فضلا عن الأسواق المعتادة التي أقيمت في أجزاء مختلفة من المدينة حتى أن أي فرد يجد كل احتياجاته اليومية[٢].

يتضح مما سبق أن المكانة التي حازتها ميلان Milan، والازدهار التجاري الذي شهدته كان يرجع إلى موقعها الجغرافي المتميز الذي مكنها من سهولة الوصول إلى مدن أوروبا التجارية المختلفة.

شهد السهل اللومباردي ظهور مدن تجارية مهمة أخرى، كان على رأسها البندقية Venice، أشهر المدن الإيطالية والتي كانت بدايتها في القرن الخامس الميلادي في شكل أكواخ بدائية لبعض اللاجئين الذين فروا إلى مستنقعات الأدرياتيك Adriatic للفرار من عنف الهون Huns بزعامة أتيلا Attila[٣]. وهنا في مدينة البندقية

---

(١) فيشر، تاريخ أوروبا العصور الوسطى، ج٢، ص٤٢٦.

(2) Lopez, Raymond, Medieval Trade; P. 69.

(٣) الهون : إحدى جموع البرابرة الذين غزوا الإمبراطورية الرومانية، وهم أتباع أتيلا الذين قدموا من سهول آسيا الغربية لغزو أراضي الإمبراطورية وقاموا بتدمير بعض الولايات التابعة للإمبراطورية، مما دفع أباطرتها إلى دفع أموال سنوية لهم مقابل عدم اعتدائهم على أراضي الإمبراطورية. وقد قام الهون تحت زعامة أتيلا بغزو إيطاليا عام ٤٥٢م إلا أنه لم يلبث أن انسحب =

أصحبوا في مأمن من مطاردة البرابرة الذين لا يمتلكون مراكب، وبدأوا تدريجيا في تشييد عدد من القرى الصغيرة على بعض الجزر المنخفضة والتي تجمعت أخيرا لتشكل مدينة واحدة وذلك في نهاية القرن السابع الميلادي، تولى قيادتها حاكم يحمل لقب دوق Duke أو دوج Doge وهو اسم اكتسب شهرة واسعة[1].

تقع مدينة البندقية متاخمة لبحر الأدرياتيك في الشمال الشرقي من إيطاليا، وتعتبر من أكبر مرافئ حوض البحر المتوسط. والبندقية جزيرة كبيرة مثلها مثل كثير من المدن الإيطالية، ولكن موقعها هذا جعلها تتحكم في العصور الوسطى في مداخل الدولة البيزنطية وبلاد الشرق الإسلامي من جهة البحر، ومداخل أوروبا العصور الوسطى من جهة البر، كما أن تحويل المدينة إلى قومون ذي كيان اقتصادي وسياسي مستقل، وجود حاكمها الملقب الدوج والذي ينتخبه نبلاؤها، إلى جانب وجود مجلس العشرة، كل ذلك ساعدها على أن تحتفظ باستقلالها السياسي بعد أن فقدته غيرها من المدن الإيطالية.

تجنبت البندقية Venice طويلا التدخل في شئون إيطاليا، وولت وجهها نحو توطيد أقدامها في مدن الدولة البيزنطية والإمارات الصليبية ببلاد الشام لذلك تعتبر

=

بعد أن أحسن باقتراب الجيوش الرومانية بقيادة القائد الروماني الشهير أيتيوس Aetius الذي هزمهم من قبل في موقعة شالون عام ٤٥١ عندما تحالف القوط الغربيين مع الجيوش الرومانية فأسرع بإخلائها في يوليو من نفس العام. عن ذلك انظر: سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج١، ص٨٥، ٩٣.

([1]) Myers (P. V. N.), Medieval and Modern History, London, 1923, P. 158.

See Also: Brown (H.), The Venetian Republic, London, 1902, PP. 75 – 76.

شارل ديل، البندقية جمهورية أرستقراطية، ترجمة/أحمد عزت عبد الكريم وتوفيق اسكندر، دار المعارف، القاهرة، ١٩٤٨م، ص٩.

- See Also: Valentin (F.), Histoire de Venise, PP. 29 – 37.

لمزيد من التفاصيل عن البندقية انظر:

- Hazlitt (W.C.), The Venetian Republic "its Rise – its Growth- its Fall", 2 Vols, New York, 1966.
- Hodgson (F.C.), The Early History of Venice, London, 1901.
- Thiriet (F.), Histoire de Venise, Paris, 1961.

مدينة البندقية من أولى المدن التجارية التي لعبت دورا بارزا في التاريخ الاقتصادي للعصور الوسطى[1]. فقد كانت عظمة البندقية وقوتها قد ارتكزت على التجارة، فإذا كانت نشأة مدينة البحيرات في القرن الخامس الميلادي، إلا أنه يؤرخ نمو ثروتها منذ غزو الأدرياتيك Adriatic عام ٣٩٣هـ/١٠٠٢م، وعقدها امتيازات عام ٤٧٥هـ/١٠٨٢م، الأمر الذي منحها حرية التجارة في الولايات البيزنطية لمدة قرن من الزمان[2]، كما أكسبها في عام ٦٠١هـ/١٢٠٤م تكوين إمبراطورية واسعة في الأرخبيل Archipelago[3] واستولت على مفاتيح الدردنيل Dardanelles، والبسفور Bosphorus. وحاولت وضع يدها ليس فقط على تجارة المشرق، ولكن أيضا على التجارة في البحر الأسود وبحر أزوف Azov، حيث أسست مكاتب تجارية وعقدت صفقات في تانا Tana[4] وأرادت تكوين علاقات مثمرة بالشرق الأقصى من خلال إرسال مبعوثين لإقامة صفقات تجارية، والتي كانت أكثرها شهرة بعثة ماركوبولو[5].

---

(1) عفاف صبره، العلاقات بين الشرق والغرب، ص٣.

(2) قد أقامت البندقية تحالفا وثيقا مع القسطنطينية، وأمدتها بسفنها لمساعدتها في القتال ضد قراصنة البحر الأدرياتي، وفي مكافحة العرب كذلك. عن ذلك انظر: شارل ديل، البندقية جمهورية أرستقراطية، ص١٩.

(3) حيث قام البنادقة بغزو القسطنطينية عام ١٢٠٤م، بعد أن انحرفت الحملة الصليبية الرابعة عن هدفها إلى القسطنطينية فاستولى عليها الصليبيون عام ١٢٠٤م حيث أقاموا مملكة لاتينية بها دامت نحو ستين عاما. عن ذلك انظر: سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص٧٣٤-٧٣٧.

انظر أيضا: ليلى عبد الجواد إسماعيل، السياسة الخارجية للمملكة اللاتينية في القسطنطينية (١٢٠٤-١٢٦١م)، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم التاريخ، كلية الآداب،جامعة القاهرة، ١٩٨٠م.

(4) تانا Tana : هو الاسم الذي عرفت به في العصور الوسطى مدينة آزق الموجودة الآن في روسيا، كانت بعد عام ١٣١٦م إحدى المستعمرات البندقية حتى استولى عليها العثمانيون عام ١٤٧٥م. عنها انظر: عفاف صبره، العلاقات بين الشرق والغرب، ص١٠٨ حاشية (٩٩).

(5) ماركوبولو: رحالة بندقي ولد بالبندقية عام ١٢٥٤م، ويعد أكثر رحالة العصور الوسطى شهرة، استغرقت رحلته أربعة وعشرين عاما (١٢٧١-١٢٩٥م) عبر آسيا كلها، توفي عام ١٣٢٢م. عنه انظر: مؤنس عوض، الرحالة الأوربيون، ص٩١، شارل ديل، البندقية جمهورية أرستقراطية، ص٦٢-٦٣.

وفي بداية القرن الثالث عشر الميلادي، تمكن البنادقة من احتكار التجارة في جميع دول حوض البحر المتوسط ولم يعد لهم منازع[1]. بل إنهم ظلوا يتاجرون مع المسلمين ويبيعون لهم الأسلحة في أيام الحروب الصليبية رغم تنديد البابوات الأقوياء أمثال أنوسنت الثالث Innoccent III (٥٩٥-٦١٣هـ/١١٩٨-١٢١٦م) بالمتاجرة مع المسلمين، حيث جدد البابا أنوسنت الثالث المرسوم الصادر من مجمع اللاتيران Lateran (الذي أصدره البابا اسكندر الثالث Alexander III[2] عام ٥٧٥هـ/١١٧٩م) فقرر فيه طرد أولئك المسيحيين الذين سيمدون المسلمين بالأسلحة، من حديد أو أخشاب أو أي مواد تستخدم في صناعة سفنهم، أو من يقدم أي عمل أو خدمة للمسلمين، وأن من يقوم بذلك سوف تصادر جميع ممتلكاته من قبل الأمراء العلمانيين وقناصل المدن وأن يتم القبض عليهم، بل يصيروا عبيدا كذلك للأشخاص الذين أسروهم[3].

بل إن المرسوم لم يقف عند ذلك الحد، وإنما قرر حرمان وطرد كل أولئك المسيحيين الين سيقيمون علاقة مع المسلمين فيما بعد سواء بصورة مباشرة أو غير مباشرة، أو من سيحاولون إمدادهم بأي مساعدة بأية حال طالما الحرب قائمة بين الطرفين[4].

لعل قيام البنادقة بذلك يدل على أن الذهب كان أقوى أثرا من الدين، ولهذا ظلت التجارة المحرمة من وجهة نظر البابوات تجري في مجراها الطبيعي فقد قال البنادقة "نحن أولا تجارا وثانيا مسيحيون"[5]. لذا نجدهم عندما أضيروا من المرسوم الصادر

---

(1) Thompson, Johnson, Medieval Europe, P. 564.

(٢) اسكندر الثالث: عندما توفي البابا أدريان الرابع عام ١١٥٩م خلفه الكاردينال رولاند الذي تلقب باسم اسكندر الثالث، والذي ظل في منصب البابوية قرابة إثنين وعشرين عاما (١١٥٩-١١٩١م) حرص طوالها على التمسك بمصالح البابوية وحقوقها. عن ذلك انظر: سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج١، ص٣٧٨.

(3) Thatcher, A Source Book For Medieval History, PP. 123 – 124.

(4) Thatcher, A Source Book For Medieval History, PP. 123 – 124.

(٥) محمود عمران، حضارة أوروبا، ص١٦٧-١٦٨.

من مجمع اللاتيران Lateran بشأن الوقوع تحت طائلة الحرمان الكنسي على أولئك الذين يزودون مراكب المسلمين بالأسلحة والحديد والأخشاب، وأن من يفعل ذلك سوف يتم مصادرة ممتلكاته وأن من يمسك به يصبح عبدا له[1]، الأمر الذي دفعهم إلى السعي إلى التحرر من ذلك الحظر البابوي بتقديم التماس إلى البابا أنوسنت الثالث Innocent III شارحين له ما أصابهم من ضرر لأنهم يعيشون على التجارة، وبناء على ذلك سمح لهم بالتجارة مع المسلمين في بعض السلع دون أن يمدوا المسلمين بأي نوع من الأسلحة[2]. وإن كان من المشكوك فيه أنهم التزموا بهذا القرار نظرا لأهمية التجارة بالنسبة لهم.

استغل البنادقة موقعهم الجغرافي الذي منحهم مفتاح الطريق بين الشرق والغرب في مهارة وجسارة حيث حملت سفنهم الجزء الأكبر من التجارة الأوروبية، وجلبت غلاينيهم السكر والتوابل من الشواطئ المصرية والشامية إلى انجلترا، والصوف الإنجليزي الخام من انجلترا إلى بلاد الفلمنكيين "الفلاندرز"، والمنسوجات الفلمنكية من بلاد الفلاندرز إلى مدن البحر الأبيض المتوسط. ونشبت الحروب بين البندقية وجنوه، ولكنها لم تنشب حول أمور بسيطة، كما هو الحال في كثير من حروب العصور الوسطى، بل كان نضالا مهلكا عنيدا من أجل السيطرة على أسواق التجارة. ذلك أن التجارة هي التي وجهت سياسة البندقية، حتى إذا غدت البندقية إمبراطورية ذات ممتلكات واسعة في حوض البحر الأبيض المتوسط لم تكن هذه الإمبراطورية غاية في ذاتها، بل أصبحت وسيلة للتوسع في التجارة[3].

على أن البندقية لم يقتصر دورها في التجارة على الوساطة بين الشرق والغرب فحسب، وإنما امتد إلى استغلال موقعها الجغرافي الذي حبتها به الطبيعة في إقامة أسواق تجارية موسمية كبرى داخلها، والتي كان يتفق موعد انعقادها مع وصول

---

(1) Migne, Patrologiae Cursus Completus, Vol. CCXIV A.D. 1198, P. 493.

(2) Migne, Patrologiae Cursus Completus, Vol. CCXIV, A.D. 1198, P. 493. See Also: Thatcher, A Source Book for Medieval History, P. 124.

(٣) فيشر، تاريخ أوروبا العصور الوسطى، ج٢، ص٤٣١.

القوافل التجارية من الشرق، مثل سوق عيد الميلاد الذي كان يعقد مع وصول الأسطول التجاري للبندقية من الاسكندرية وبيروت في شهر أكتوبر، وعلى الرغم من أن معظم الذين كانوا يشهدون هذه الأسواق هم تجار المدن المجاورة للبندقية، إلا أنها أعطت دفعا قويا لتجارة المدن الإيطالية وأنشطتهم وحققت لها سمعة عالمية[١].

كانت البندقية تنتظر عودة قوافلها التجارية بفارغ الصبر، وكانت هذه القوافل تتمثل في قافلة القسطنطينية أو بلاد الروم، وقافلة الاسكندرية أو مصر، وقافلة الشام، وقافلة تانا في إقليم البحر الأسود، وأضيفت إليها بعد ذلك قافلة الأراضي المنخفضة لبلاد الغرب، حيث كانت عودتها تتفق مع موسم الأسواق الكبرى التي تعقد في عيد الفصح وفي شهر سبتمبر وعيد الميلاد، والتي جعلت منذ القرن الثاني عشر الميلادي سوق ريالتو الكبير Rialto من أشهر أسواق التجارة في البحر الأبيض المتوسط[٢]. فقد تجمعت طرق تجارة البندقية العظيمة لتصب بتجارتها في ريالتو Rialto ذلك السوق العظيم الذي تجمع فيه التجار. حيث نعمت البندقية Venice من خلال طرقها التجارية، بقدوم العديد من السلع التجارية خاصة الشرقية كالسجاد، والدمقس، والجواهر، والأشغال الفضية والذهبية وغيرها مما جعل المحلات في ريالتو Rialto تصطبغ بصبغة رائعة من الألوان، فتوافر بها التوابل، والعقاقير الطبية، والبن، والسكر، وغيرها من السلع التي كانت توزع على سائر أسواق أوروبا من خلال ذلك السوق العظيم الواقع على رأس الأدرياتيك Adriatic[٣].

على أن عظمة هذا السوق وأهميته لم تقف عند ذلك الحد، بل كان يوجد للتجار مكاتب للمحاسبة حيث يتوجه إليها التاجر صباحا للتعامل في شئونه اليومية ولتوزيع العمل على الكتاب، وبعدها يتوجه التاجر إلى سوق ريالتو لتبادل الأخبار واشترك كتاب الحسابات وأتباعهم مرارا وتكرارا في عمليات التبادلات المالية والتجارية التي تمت هناك. وعندما يرتفع صوت الجرس العظيم لكنيسة القديس مارك St.Mark

---

(١) عادل زيتون، العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب، ص٤٢.

(٢) شارل ديل، البندقية جمهورية أرستقراطية، ص٢٩.

(3) Drown, The Venetian Republic, P. 79

معلنا أن هناك سفينة على مرمى البصر من الميناء، فإن البهجة كانت تعلو، ليس التاجر الكبير فحسب، وإنما أيضا كتاب الحسابات وأتباعهم، بل والتاجر الأصغر ومن هو دونه، وكل نقابة عمال السفن، الذين ينتظرون إنزال وسق السفينة. فكانت المدينة قوية في تحقيق مصالحها من أجل الازدهار التجاري، وبذا انطلقت البندقية إلى عصر نجاح تجارتها الرائجة، والتي ربما تعتبر كواحدة من شركات رأس المال العظيمة المترابطة من أجل استغلال موارد الشرق والتي أصبحت أكثر ازدهارا فيما بعد[١].

بلغت البندقية Venice الذروة في القوة في خلال القرن الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر الميلادي، وكانت تحتفل بسيادتها على حوض البحر المتوسط في كل عام بإقامة حفل للأدرياتيك Adriatic[٢].

عموما فقد استطاعت المدن اللومباردية في شمال إيطاليا أن تتحرر من نفوذ الأمراء الإقطاعيين لتصبح قومونات مستقلة في إدارة شئونها، وكان أن اشتد التنافس بين هذه المدن حتى انتهى الأمر بتكتلها في حلفين متضادين، أحدهما بزعامة ميلان والثاني بزعامة بافيا، وإن كانت رغبتها في التمتع بالاستقلال ومباشرة نشاطها الاقتصادي جعلتها تتفق جميعا في سياسة واحدة، هي مقاومة أية سيطرة تحاول الإمبراطورية فرضها عليها[٣].

ونظرا لاعتقاد الإمبراطور فردريك بربا روسا (٥٤٧-٥٨٦هـ/١١٥٢-١١٩٠م) الراسخ في عظمة الوظيفة الإمبراطورية، وبأنه خليفة قيصر وشارلمان ومن حقه

---

(١) Drown, The Venetian Republic, P. 83.

(٢) كانت البندقية تقيم كل عام حفلا للاحتفال بسيطرتها على الأدرياتيك يسمى بـ"حفل زفاف الأدرياتيك" حيث يقومون بقذف خاتم في البحر. وترجع أصول تلك العادة إلى ما يلي: أنه في عام ١١٧٧م خرج البابا اسكندر الثالث Alexander III ليشكر البنادقة على خدماتهم التي قدموها له في حربه مع الإمبراطور فردريك بربا روسا، وقام بإعطاء الدوج خاتما مع هذه الكلمات "خذ هذا كشعار للسيطرة على البحر احتفل بها في كل عام أنت وخلفاؤك للأبد ليعلم الجميع أن البحر ملك لمدينة البندقية، ويخضع لها كما تخضع العروس لزوجها". وكان هذا الاحتفال السنوي أحد أعظم وأبهى المناظر في العصور الوسطى. عن ذلك انظر:

Myers, Medieval and Modern History, P. 159.

(٣) سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج١، ص٣٧٢.

التمتع بما كان لهذين الإمبراطورين من نفوذ عالمي وسلطان واسع، لذا فقد سعى لتطبيق ذلك بفرض نفوذه على إيطاليا، فعمل على إخضاع المدن اللومباردية في شمال إيطاليا لسلطة الإمبراطورية المباشرة وهو ما عارضه البابا بشدة.

استغل الإمبراطور الانشقاق الذي حدث بين المدن اللومباردية حيث وقف حزب كريمونا وبافيا في جانب الإمبراطور، بينما الحزب الآخر تزعمته ميلان بمساندة البابا. وظلت الحرب سجالا بين الحزب البابوي والحزب الإمبراطوري، إلى أن انتشر الطاعون في جيش الإمبراطور وفتك برجاله فتكا ذريعا، فانتهزت المدن اللومباردية ذلك، فكونت فيما بينها ما يعرف باسم الحلف اللومباردي عام ٥٦٤هـ/١١٦٨م الذي اتسع حتى شمل جميع مدن سهول إيطاليا الشمالية من ميلان حتى البندقية، ومن برجامو حتى بولونيا[١].

إذ أن المدن اللومباردية بما حازته من أهمية تجارية نتيجة لموقعها الجغرافي المهم لم تكن لتتنازل عما حققته، بل سعت جاهدة على الحفاظ على مكانتها وحريتها، لذا نجدها ترفض بشدة تدخل الإمبراطور فرديريك في شئونها إذ عندما حاول تأكيد سلطته عليها مني بهزيمة ساحقة في لينانو Legnano[٢] عام ٥٧٢هـ/١١٧٦م، من قبل الحلف اللومباردي بمساعدة البابا اسكندر الثالث، وتم إرساء السلام لعدة سنوات فيما بعد في كونستانس Constance، حيث خضعت المدن اللومباردية لسلطة الإمبراطور فرديك الإسمية، ولكنها احتفظت لنفسها بالسلطة الفعلية مع دفع الحقوق الملكية وهو ما اقتنع به الإمبراطور[٣].

بناء عليه تم توقيع معاهدة كونستانس Constance عام ٥٧٩هـ/١١٨٣م، والتي اشتملت على إعطاء المدن كافة الحقوق والرسوم التي كانت تطبق من الماضي فقد سمح في أن يتمتع الناس خارجها أيضا بكافة ما اعتادوا عليه من قبل وبالتحديد بالنسبة

---

(١) سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج١، ص٣٧٧-٣٧٨، ٣٨٢.

(٢) تقع لينانو إلى الشمال الغربي من ميلان. تعد هذه الموقعة هي الموقعة الفاصلة بين جيوش مدن الحلف اللومباردي من جهة والجيوش الإمبراطورية من جهة أخرى. عن ذلك انظر: سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج١، ص٣٨٣.

(3) The Treaty of Constance. In, Cave, Coulson, A Source Book; P. 205.

للمواشي والبساتين، والمراعي، والكباري وجداول المياه والطواحين على أن يتبع في المدن ما اعتادوا عليه في الماضي أيضا فيما يخص الجيش وتحصينات المدن وفيما يخص القضايا المدنية والجنائية، ويطبق كل ذلك داخل وخارج المدينة، كما أمر أن يتم انتخاب الأساقفة في هذه المدن وكذلك الموظفون المدنيون بها وبالدوقيات الأخرى وذلك وفق ما هو متبع أي أن تتوافر بهم الصفات المطلوبة وأن يكونوا مؤهلين لهذه المناصب، وألا يكونوا أعداء للمدن أو للسلطة الإمبراطورية، وأن يقسموا لهم دون خوف أو خيانة بأنهم سيلبوا مطالبهم، وأن يخبروهم بكل ما يهدد مصالح الإمبراطورية.

ولكن إذا رأت المدن أن هناك مطالب ضرورية يحتاجون لها فسيتم فرض ضريبة تقدر بألفي مارك من الذهب سنويا. علما بأن الأوامر والمطالب الإمبراطورية ستكون معتدلة، وذلك في حالة الاحتياج لمبالغ مالية كبيرة[١]. الأمر الذي يظهر لنا قوة هذه المدن والمكانة التي حازتها، ورغبتها الشديدة في تدعيم تلك القوة مهما كان خصمها، وذلك حفاظا على تجارتها[٢].

يتضح لنا مما سبق أن المدن اللومباردية قد تمتعت بموقع جغرافي متميز مكنها من التحكم في الطرق التجارية المهمة بين الشرق والغرب، مما كان له أكبر الأثر في ازدهارها تجاريا وقيام الأسواق التجارية الموسمية بها مما حقق رواجا تجاريا لها، إلا أن أعظم أدوارها كان قيامها بالوساطة بين الشرق والغرب وهو ما انعكس بالثراء والازدهار على كل أسواق أوروبا التجارية.

---

(1) Borsiere (G.B.), Chronicon Tolosani, Canonici Faventini, in Documenti di Storia Italiana, Vol. VI, Florence, 1876, A.D. 1183, P. 780.

(٢) قد غدت المدن اللومباردية دويلات مستقلة بمقتضى معاهدة كونستانس، بل إن نفوذ الإمبراطور في شمال إيطاليا أضحى اسميا منذ ذلك الحين، ما أدى إلى تفكك الإمبراطورية وانفصال إيطاليا عن ألمانيا في تطورها. عن ذلك انظر: سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج١، ص٣٨٤.

(٤) دور الدولة والكنيسة في تدعيم الأسواق وصيانة الطرق والمواصلات :

حظت الأسواق والمعارض الكبرى التي أقيمت في أوروبا بتدعيم الدولة والكنيسة حتى تتمكن من تحقيق التقدم والازدهار لحاجتها إلى الأمن والحماية لها ولجميع التجار القادمين إليها من شتى البقاع، خاصة وأن أوروبا كانت تعاني كثيرا من هجمات اللصوص وقطاع الطرق مما جعل التجار يعانون كثيرا من أذاهم إلى جانب ما فرض عليهم من ضرائب ومكوس ظالمة.

فإذا كانت الأسواق أو المعارض يتم إقامتها بموجب براءات أو منح من الأباطرة أو الملوك أو غيرهم من السادة، إلا أن هذه البراءات لم تتضمن حق الإقامة فحسب، وإنما اشتملت كذلك على التعهد بحفظ الأمن وتحقيق السلام لكل تجار السوق ورواده مع الوعيد لأي شخص يحاول أن يعكر صفو السوق، كأن يتعرض بالأذى لهؤلاء التجار أو أن يسبب المشاكل والاضطرابات داخله، إذ أنه سيكون في هذه الحالة عرضه للمساءلة والعقاب. وقد تقتصر العقوبة على دفع غرامة مالية مثلما كان يحدث في الكثير من المعارض في البلاد المختلفة[١]. أو قد تصل إلى حد أن يتم إجلاؤه هو ومن معه من أهل بلدته من المعرض نتيجة لخرقه النظم المتبعة داخله[٢]، حيث شكل السوق مكان التقاء للغني والفقير على حد سواء ينعم فيه الجميع بالأمن والحماية[٣]. فقد تم منح امتيازات السوق لليوبك Lubeck من قبل الملك والديمار المنتصر Waldemar[٤] ، عام

---

(1) Gengler, Codex Juris Municipalis Germaniae; A.D. 1030, P. 806.

(2) Thompson, Johnson, Medieval Europe; P. 567.

(3) Thorpe, Ancient Laws and Institutes of England After A.D. 1115, P. 462.

(٤) والديمار الثاني Waldemar II حكم الدنمارك (٥٩٩-٦٣٩هـ/١٢٠٢-١٢٤١م) الي أن نجح في أن يحقق انتصارات كبيرة على العناصر السلافية والاستوينا ويين Esthonians حتى تمكن من توسيع ممتلكاته، إلا أن أمراء ألمانيا المجاورين اتحدوا للقضاء على سيطرة والديمار الثاني. عن ذلك انظر: سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج١، ص٦٠٧.

٦٠٠هـ/ ١٢٠٣م، ملك الدنمارك Denmark[١] الذي سيطر بالغزو على كثير من أراضي البلطيق Baltic وكان قادرا على منح الامتيازات الممنوحة لجنوب السويد Sweden، مركز التجارة إلى ليوبك Lubeck حيث شكلت Scania جزءا من الأراضي الدنماركية حتى اتسعت تجارة ليوبك في بحر الشمال وفي غيره من المناطق الأخرى[٢].

ونظرا لأن ليوبك كانت في حاجة إلى مثل هذه الامتيازات لتدعيم موقفها داخل السوق، لذا فقد منح الملك والديمار Waldemar مواطني هذه المدينة، داخل أسواق Skanor وFalsterbo الحق في بيع بضائعهم جملة وتجزئة وشراء ما يوجد للبيع هناك. وكذلك اختيار أي محام يختارونه للفصل في الجرائم والأخطاء ما عدا جرائم اليد والرقبة المسماه (hand and neck) وهذا القانون الخاص بها كان يعمل به في الماضي وحتى اليوم ما عدا ما يخص bla and blot[٣]، وهذا بعيدا عن قضاء المواطنين ومن هؤلاء الذين يعيشون طبقا لقانون المدينة. ولكن على كل شخص أن يقدم ضريبة Thelony[٤] لموظفي الملك حتى يمكنهم بيع القماش بالذراع، ويمكنهم بيع أشياء أخرى بالوزن، وهذا يرجع إلى أن الملك منحهم الحريات التي يجب أن يعملوا بها في أسواقهم

---

(١) الدانمارك: تمكنت من خلال ملكها كانوت أن تقيم دولة سكندناوية كبرى، ضمت النرويج وانجلترا إضافة إليها، إلا أن كانوت سرعان ما وجد أن هذه الإمبراطورية أوسع من أن يحكمها بسهولة لذا فصل حكومة النرويج وأعطاها لابنه سوين Sweyn في حياته، ثم لم تلبث بقية الإمبراطورية أن تفتت عقب وفاته عام ٤٢٧هـ/١٠٣٥م، فاستقلت النرويج وانفصلت انجلترا بعد الغزو النورماني. عن ذلك انظر: سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج١، ص.٦٠٥

(٢)Grant of Market Privileges to Lubeck by king Waldemar; in: Cave, Coulson, A Source Book; P. 223.

(٣) bla and blot : مصطلح يعني جريمة كانت تعرف بـ Blue and Bloodyc أي الزرقة الدموية. والتي يصطلح عليها بـ bal and blot عن ذلك انظر:
Cave, Coulson, A Source Book; Glossory, P. 424.

(٤) Thelony : هي رسوم تفرض على الصادرات والواردات. عن ذلك انظر:
Cave, Coulson, A Source Book; Glossory, P. 432.

الحرة[1].

كما تم تدعيم الأمن داخل الأسواق حيث كان يراعي عدم تعرض أحد للأذى والضرر حتى ولو كان بسبب دين عليه، من ذلك ما قام به الإمبراطور فردريك بربروسا Frederick Barbarossa عام ٥٦٢هـ/١١٦٦م من منح الحرية لكل التجار داخل معارض آخن Aachen وغيرها وإعفائهم من كل الرسوم طوال هذا العام، مع منحهم حرية شراء وبيع البضائع حسب رغبتهم. وألا يسمح لتاجر أو لأي شخص آخر أن يقوم باستدعاء أي تاجر إلى المحكمة لدين عليه أو لأي عمل قام به قبل افتتاح المعرض أو أثنائه، أما في حالة حدوث شئ يؤدي إلى حدوث فوضى أثناء فترة المعرض فمن الممكن عرضه على المحكمة في هذا الوقت[2]. مع الحرص على السلام داخلها، لذا فإن كل من يأتي أو يقيم أو يغادر هذه المعارض سوف يتمتع بالسلام في أملاكه وشخصه[3]. إذ أن حماية التاجر كانت من شأن السلطة العامة، فالأمراء المحليون الذين التزموا بحفظ الأمن وإقرار السلام في كونتياتهم، أمدوا رعايتهم إلى التجار، وهم بذلك لم يقوموا بأكثر من مواصلة سياسة الدولة التي اغتصبوا سلطاتها، عندما أقاموا القومونات المستقلة. فإذا كان شارلمان أصدر القرارات التي ترضي الحجاج والتجار – من اليهود والمسيحيين – فقد سار خلفاؤه على نهجه. إضافة إلى أن الأمراء حرصوا على أن يجذبوا إلى أقاليمهم أعدادا كبيرة من التجار الذين حركوا بها النشاط وكانوا عاملا في ازدياد الموارد المتحصلة من رسوم السوق. فاتخذ الكونتات التدابير اللازمة لمناهضة قطاع الطرق، وسهروا على سلامة الأسواق وتأمين المواصلات. فازداد النشاط التجاري في القرن الحادي عشر الميلادي، بفضل توافر الأمن والطمأنينة، حيث أمرت الكنيسة بالتصدي للصوص وقطاع الطرق، وأسهم في حماية التجار ما جرى منذ القرن العاشر الميلادي من ابتكار نظم هدنة الله[4]. كما قام الملوك في أوروبا العصور الوسطى، برعاية التجار

---

(1) Sartoriue (G.F.), Urkundliche Geschichte des Ursprunges der Deutschen Hanse, Vol. II, Hamburg, 1830, A.D. 1203, P. 12.

(2) Menadier, Die Aachener Munzen, A.D. 1166, P. 58.

(3) Menadier Die Aachener Munzen, A.D. 1166, P. 58.

(٤) السيد الباز العريني، الحضارة والنظم، ص١٦٨-١٦٩.

=

وحماية مصالحهم نظرا لما سوف يعود عليهم وعلى بلادهم من ثروات نتاج نشاط هؤلاء التجار، حتى أننا وجدنا هنري الثاني Henry II[1] (٥٤٠-٥٥٨هـ/١١٤٥-١١٨٩م) ملك انجلترا يضع تجار كولونيا Cologne تحت حمايته في عام ٥٥٢هـ/١١٥٧م، لذا فقد أصدر أوامره إلى القضاة وجميع مسئولي انجلترا بضرورة قيامهم بتوفير الحراسة والحماية للتجار والمواطنين من أهل كولونيا حيث إنهم خاصته وأصدقائه وحذرهم من تطبيق نصوص القانون على كل من يخالفه بشدة[2].

ولعل مما يلفت النظر في أحوال أوروبا خلال العصور الوسطى هو كثرة الضرائب والمكوس التي فرضت على التجار وعلى حركة مرورهم عبر الطرق، وربما كان ذلك ما دفع الملك هنري الثاني أن يؤكد على موظفيه ضرورة الاكتفاء بأخذ الرسوم القانونية من تجار كولونيا Cologne فحسب دون زيادة[3]. إذ لم يقتصر الأمر في أوروبا على بقاء المكوس المعتادة، وإنما زاد عليها فرض رسوم جديدة عرفت باسم Teloneum أو مكوس السوق إلى جانب ضرائب المرور التي شكلت عبئا على التجار إذ لم يستفد من هذه الضريبة في إصلاح الطرق أو تجديد بناء الجسور.

=

هدنة الله وسلام الله: كان الغرض منها الدعوة للسلام بين المسيحيين وأول من تولى الفكرة وليم الكبير دوق جيين في المجلس الذي اجتمع في بواتييه عام ١٠٠٠م، وتقرر الالتجاء إلى التحكيم والقضاء لا إلى السلاح لحل المنازعات. وكل من يخرج على ذلك يقطع من الكنيسة. وتوالت محاولات الحد من الحروب في أوقات كثيرة سميت هدنة الله وشملت الأيام الدينية والأعياد ثم أصبحت أياما في الأسبوع. كأن هدنة الله أصبحت مستقرة في أيام كثيرة، منع فيها القتال. عن ذلك انظر:

Hefel, Leclere, Histoire des Conciles, Vol. II, London, P. 129.

(1) هنري الثاني Henry II : هو هنري بلانتاجنت الذي تولى عرش انجلترا تحت اسم هنري الثاني والذي عد من أكبر شخصيات العصور الوسطى على الإطلاق، إذ كان حاكم ذو عقلية قانونية بلغ بقوة عقله ومضاء عزيمته مبلغ العباقرة. أعطى للقرن الثاني عشر أعظم أنموذج للملكية القوية المستبدة. وقد نجح في تدعيم انجلترا خارجيا وداخليا حيث قام بإصلاحات كثيرة أبرزها تلك التي قام بها في القضاء. عن ذلك انظر: نظير سعداوي، تاريخ انجلترا، ص٨٠-٨١.

(2) Protection of the Men of Cologne at London. In: Lappenberg, Urkundliche Geschichte; Part II, A.D. 1157, P. 3.

(3) Lappenberg, Urkundliche Geschichte, Part II, A.D 1157, P. 3.

أثقلت هذه المكوس كاهل التجار مثلما كان للحقوق الإقطاعية مع الأرض. لذا فإن أول المطالب التي نتجت عن قيام المدن هي أن يتحرر مواطنوها من هذه المكوس. إما جزئيا أو داخل المقاطعة التي يحكمها الأساقفة أو غيرهم، إذ نال أهلها وحصلوا على إعفاءات كعمل من أعمال البر. لذا فمن القرن الثاني عشر الميلادي فصاعدا نجحت القومونات الغنية في الحصول على امتيازات التحرر من المكوس في الأقطار الأجنبية التي يتردد عليها تجارهم[١]. من ذلك حصول رعايا كولونيا Cologne من الملك هنري الثاني Henry II على حق بيع خمورهم في السوق التي تباع فيها الخمور الفرنسية وذلك مقابل ثلاثة دنيير denarii[٢] مع منعهم من التعرض لأحد بضرر أو أذى[٣].

إذا فإن الحاجة كانت ملحة وضرورية لأن يقوم الملوك بإصدار القرارات التي توجب إلغاء الضرائب والمكوس الجائرة المفروضة على التجار عبر الطرق أو داخل الأسواق، وتقنين تلك الضرائب ووضعها في صورة مقبولة داخل نطاق طبيعي. ذلك لأن التجار كانوا معرضين لفقد بضائعهم داخل الأسواق نفسها في حالة حدوث الوفاة أو ما شابه ذلك من مرض أو عجز، لذا فقد تم إصدار قوانين تعيد تلك البضائع لورثته. من ذلك ما قام به الملك والديمار Waldemar لمواطني Lubeck بأنه في حالة وفاة أي مواطن منهم داخل السوق فإن ورثته المتواجدين معه يمكنهم أخذ بضائعه، أما في حالة عدم تواجد ورثة له داخل السوق فإن محامي الملك أو المواطنين الأمناء يمكنهم أخذها وإعطائها للورثة، ولن يكون لمحامي الملك أي سلطة قضائية في ذلك[٤]. الأمر الذي يثبت أن قوانين العصور الوسطى أخذت في التبدل والتأقلم حتى تتواءم مع ظروف التجار وما صاحبه من إحياء وازدهار تجاري منذ بداية القرن

---

(١) بيرين، تاريخ أوروبا، ص٨٩-٩٠.

(٢) الدنيير denarii : عملة كانت تعرف أحيانا باسم Penny ، سكت في العصور الرومانية القديمة أيام الحرب البونية، وحلت محل الدراخمة وأصبحت العملة الفضية الرئيسية. عنها انظر:

Cave, Coulson, A Source Book; P. 425.

(3) Prinlege of the Men of Cologne at London. In: Lappenberg, Urkundlich Geschichte; Part II, A.D. 1157, P. 4.

(4) Grant of Market Privileges to Lubeck by king Waldemar. In: Sartorius, Urkundliche Geschichte; Vol. II, A.D. 1203, P. 12.

الحادي عشر الميلادي، خاصة ما صاحب هذا التبدل من قيام المعارض التجارية الكبرى التي كانت في حاجة إلى قوانين جديدة تتواءم مع وضعها الجديد.

قام الإمبراطور فردريك بربروسا Frederick Barbarossa بإلغاء بعض القوانين الظالمة التي كانت تعوق التعاملات التجارية داخل السوق مثل بعض النظم القديمة المتبعة بين سكان آخن Aachen ، ومنها أن أي شخص يتعرض للاتهام ظلما أو افتراء ولا يستطيع أن يقدم ما يثبت براءته أو ما يدافع به عن نفسه يتعرض للحرمان من الممتلكات التي غالبا ما تكون ممتلكات زراعية متواضعة والتي يحصلها من الأرض، وإن لم يقم بتنفيذ ذلك مباشرة يقع تحت طائلة العقاب، وتفرض عليه غرامة. لذا فقد أدان الإمبراطور فردريك هذا القانون الجائر تماما، وبمقتضى المرسوم الصادر من سلطته الملكية قرر أن يباح لكل شخص في مدينة آخن Aachen الملكية بأن يدافع عن نفسه ضد أي اتهام، إذ أنه مهما كان سبب أو نوع الاتهام، فقد سمح له أن يقدم دفاعه عن أي إدانة أو اتهام مهما كان صغيرا، سواء أكان ذلك يخص عباءة أو سترة أو قطعة فراء أو قميص أو أي صنف من الملابس التي يعرضها أو التي تكون متعلقة بأي شئ يستر جسده[١].

إذا فهذا حق جديد أعطي لرواد المعارض وهو الدفاع عن أنفسهم ضد أي تهمة أو اعتداء يتعرضوا له دون انتهاك لحقوقهم، بل إن الإمبراطور فردريك لم يكتف بإصدار مثل هذه القرارات فحسب، وإنما وضع عقوبات صارمة على مخترقيها فأصدر قرارا بأن كل من يعارض هذه القرارات الإمبراطورية أو من يتجرأ على التصدي لها سيقع تحت طائلة العقوبة، وسيجبر على دفع مائة جنيه من الذهب إلى الخزانة الإمبراطورية[٢].

ليس من شك في أن معظم الامتيازات والقوانين السابقة قد تم تعميمها على

([1]) Emperor Frederick Barbarossa Establishes Two Fairs at Aachen, January, 9, 1166. in: Menadier, Urkunden und Aachener Munzgeschichte; XXXI, PP. 275 – 276.

([2]) Menadier, Urkunden und Aachener; XXXI, PP. 275 – 276.

المعارض والأسواق داخل أوروبا، لأن التجار ونقاباتهم هم من سعوا للحصول على مثل هذه الامتيازات من خلال السلطة الحاكمة، بينما كان بعضها خاصا بالمكان الذي صدرت فيه، من ذلك إعطاء الملك والديمار Waldemar مواطني ليوبك Lubeck الحق في عدم دفع ضريبة Thelony "على الصادر والوارد" على البضائع التي يأتي بها التجار إلى شاطئ المدينة وذلك إذا كان يمتلك محلا أو سفينة أو حوضا للسمك في السوق ذاته. ولا يحاكم مطلقا داخل السوق، إلا إذا اقترف فعلة نكراء ضد النساء أو قام بإخفاء بضائع وراء ظهره أو حبس أحد خلف الأبواب دون سند قانوني أو سبب مقنع[١]. إذ من غير الممكن تعميم مثل هذا القرار لأنه من المعلوم أن التجار أنشأوا محاكم داخل السوق لسرعة البت في مشاكلهم وأنه كان من المسموح لأي تاجر أن يتوجه إليها للدفاع عن حقوقه مهما كانت جنسيته.

ومن الامتيازات التي أسهمت في تدعيم الأسواق كذلك السماح لأي شخص يشتري من السوق بأن يحمل السلعة التي اشتراها بحرية وأن يغادر دون أن يمنعه أحد.

بل إن كل فرد يمتلك محلا داخل السوق يمكنه أن ينقل ملكيته إلى ورثته بشرط موافقة الملك الحاكم للمدينة التي بها السوق[٢].

كما سعى التجار للحصول على الإعفاءات الضرائبية والجمارك لأن ذلك شكل أمرا مهما لهم، من ذلك تحرير الملك ريتشارد الأول Richard I[٣] (٥٨٥-

---

(1) Sartorius, Urkundliche Geschichte; Vol. II, A.D. 1203, P. 12.

(2) Sartorius, Urkundliche Geschichte; Vol.II, A.D. 1203, P. 12.

(٣) ريتشارد الأول:تولى عرش انجلترا خلفا لأبيه هنري الثاني، ولقب بقلب الأسد، كما لقب بالملك الغائب لكثرة غيابه عن انجلترا خلال معظم سنوات حكمه، وقد شارك في الحملة الصليبية الثلاثة (١١٨٩-١١٩٢م) والتي انتهت بعقده صلح الرملة مع صلاح الدين بعدما سمع بالمؤامرة التي حيكت ضده من فيليب أغسطس ملك فرنسا، إلا أنه حين عودته وقع أسيرا في يد ليوبولد دوق النمسا الذي سلمه لهنري السادس إمبراطور ألمانيا وظل أسيرا إلى أن جمعت له حكومته فدية لإطلاق سراحه عام ١١٩٤م. وما كاد ينعم بحريته حتى خاض حربا ضد ملك فرنسا استمرت خمس سنوات حتى لقى حتفه عام ١١٩٩م. عن ذلك انظر: سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج١، ص٢٦٢-٢٦٣، نظير سعداوي، تاريخ انجلترا، ص٩٢.

٥٩٩هـ/ ١١٨٩-١١٩٩م) مواطني كولونيا Cologne وبضائعهم من الضريبة التي تساوي اثنين صولدي Solidi، والتي اعتادوا على دفعها إلى مقر النقابة في لندن، ومن جميع الرسوم والمتطلبات التي تتعلق بمدينة لندن London وجميع البلاد في انجلترا. كما تم منحهم أيضا حرية الذهاب والإياب داخل انجلترا وأن يشتروا ويبيعوا في المعارض في مدينة لندن وفي أي مكان آخر داخل المملكة[١].

مثلما أعفى وليام William كونت الفلاندرز Flanders كل مواطني الفلاندرز من الجمارك، حيث قرر أنه لن يطلب منهم شيئا من رسوم Scot[٢] ، أو Taille[٣] ، أو قروض إجبارية.

كما أكد على أن ممثل مدينة القديس St.Omer سوف يراعى أن يكون هناك عملة مستقرة وجيدة طوال فترة عمله من أجل تحسين أحوال المدينة[٤]. الأمر الذي من شأنه أن يدعم أسواق الفلاندرز Flanders بصورة جيدة.

لعل ما سبق يعطي صورة جيدة عن تدعيم الأسواق من قبل السلطة الحاكمة، إلا أن هذا وحده لم يكن كافيا لتحقيق الازدهار لهذه الأسواق إذ ما زالت الحاجة قائمة إلى شق الطرق وصيانتها وإيجاد مواصلات معقولة نسبيا للوصول للأسواق وتأمين تلك الطرق والمواصلات كذلك.

جهود الدولة والكنيسة والتجار لحماية الطرق وصيانتها :

عانت أوروبا كثيرا من ضعف وسائل المواصلات، وصعوبة انتقال التجار، ونقل البضائع من مكان إلى آخر. ذلك لأن الطرق العظيمة المرصوفة بالأحجار،

---

(1) Tax Privileges of the Men of Cologne in England; in: Lappenberg, Urkundlich Geschichte, Part II, A.D. 1194, P. 5.

(٢) Scot : عبارة تدل على الحقوق والواجبات المفروضة على المواطنين.

See: Cave, Coulson, A Source Book; Glossary, P. 431.

(٣) Taille : أي ضرائب أو رسوم يفرضها الملك أو أي واحد من السادة على أتباعهم. مثل الضريبة التي تفرض على الأرباح السابقة أو ضريبة الأملاك.

See, Cave, Coulson, A Source Book; Glossary, P. 431.

(4) A Charter for the Town of St. Omer. In: Kemble, Saxons in England, Vol. II, A.D. 1127, P. 528.

التي أقام الرومان منها شبكة قوية ضخمة ربطت أنحاء الإمبراطورية ومدنها بعضها ببعض[١]، والتي كثيرا ما كانت حضارة الرومان تقاس بعظمتها، إلى جانب وجود الجسور، عبر الأنهار لضمان الاتصال السريع والمستمر عسكريا أو مدنيا[٢] ، كل ذلك لم يلبث أن اختفى حيث اختفت الطرق وعفى عليها الزمن، كما انهارت الجسور المقامة على الأنهار نتيجة لما تعرضت له من إهمال عند انحطاط أحوال الإمبراطورية[٣].

كانت الطرق في العصور الوسطى أقل بكثير من الدروب في داخل البلاد وحيث إن هذه الطرق لم تكن مدرجة وحرفها ليس على ما يرام ، بل إنها كانت طرقا طينية وترابية كما كانت مليئة بالحفر. بل إن البقع التي كانت تظهر كان يتم استصلاحها بوضع التراب أو بإضرام الحطب أو أغصان الشجر. حتى أن العديد من الجسور التي وجدت كانت غير آمنة وكثيرا ما كان يلجأ المسافر إلى عبور الأنهار عن طريق المعديات، وقد بذلت الجهود للإبقاء على هذه الطرق في حالة صالحة للعبور[٤].

لذا فإنه يمكن القول أن الطرق التي عرفتها أوروبا العصور الوسطى لم تكن أكثر من سبل بدائية غير ممهدة تكسوها الأتربة الكثيفة، التي سرعان ما تتحول إلى أوحال عند هطول الأمطار، إضافة إلى ما يعترضها من حفر خطيرة جعلت السير فيها ليلا أمرا محفوفا بالمخاطر[٥].

بما أن ملاك الأراضي كانوا يحتفظون بأملاكهم على امتداد الطرق السريعة فقد ظلوا يجبون الضرائب من أجل استخدامها في إصلاح الطرق، ولكن على الرغم من أن هذه الضرائب التي كانت تجبى على الجسور من المسافرين على بعض الطرق كانت تؤخذ من أجل حمايتهم عند مرورهم على أراضي بعض النبلاء إلا أن القليل من هذا المال كان يتم إنفاقه على إصلاح الطرق. بل إنهم

---

(١) سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج٢، ص١٠٦.

(٢) عزيز سوريال عطية، العلاقات بين الشرق والغرب، ص١٦٢.

(٣) سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج٢، ص١٠٦.

(4) Thompson, Johnson, Medieval Europe; P. 575.

(٥) سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج٢، ص١٠٦، بيشوب، تاريخ أوروبا، ص٢١٣-٢١٤.

تعرضوا في الكثير من المناطق لفقد بضائعهم على أيدي بعض النبلاء الذين يقومون بسلبها منهم عند مرورهم عبر أراضيهم. كما رفض بعض السادة إصلاح الطرق المنهارة حتى يقوم جميع جيرانهم ببذل نفس الجهد الذي بذلوه[١]. وفي ظل هذه الظروف لم يجد التجار في العصور الوسطى وسيلة لنقل بضائعهم سوى باستخدام الخيل والبغال، بينما اضطر صغار التجار إلى حمل بضائعهم على ظهورهم والتنقل بها سيرا على الأقدام من مكان إلى آخر.

وقد تم استخدام عربات النقل لأول مرة في إيطاليا حيث بذلت المدن قصارى جهدها للإبقاء عل الطرق في مستوى مناسب والعمل الدائب على تحسينها. ثم لم يلبث أن بدأ استخدام نوع من العربات البدائية في كل من فرنسا وألمانيا، عبارة عن عربات ثقيلة ذات عجلات صغيرة لتحافظ على توازنها، وإن ظلت هذه العربات تستخدم لفترة طويلة للنقل المحلي إلى الأسواق والمعارض فقط[٢].

وبهذا فإن وسائل المواصلات كانت موافقة لحالة الطرق السيئة آنذاك، فمع أن العربة الخفيفة ذات العجلتين كانت تستخدم في العادة لنقل البضائع، إلا أن البضائع المهمة كانت تحمل على ظهور الخيل. كما أن إرسال سلع ثقيلة بالبر آنذاك كان يتطلب تقسيم حمولتها بين عدد من العربات أو الحيوانات. وبالتأكيد، فإن العربات الثقيلة ذات الأربع عجلات كانت مستخدمة لكن استخدامها اقتصر على الطرق غير الممهدة، ولم يؤت التقدم في استخدام الخيول في جر العربات في القرن العاشر الميلادي بالنتائج المرجوة طالما أن وسائل النقل ظلت قليلة[٣].

لذا أسهمت قومونات العصور الوسطى جاهدة من أجل التشجيع على إنشاء الطرق وتأمينها[٤]، إذ بمرور الوقت استدركت أهمية الطرق الصالحة للاستخدام

---

(1) Thompson, Johnson, Medieval Europe; P. 575.

(2) Thompson, Johnson, Medieval Europ; P. 576.

سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج٢، ص١٠٦.

(٣) بيرين، تاريخ أوروبا، ص٩١.

(٤) سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج٢، ص١٠٦.

بشكل كبير. ولنا أن نقول بأنه لم يوجد قومون أو دولة حتى الكنيسة نفسها إلا واهتمت بهذه المشكلة[1]. حيث أخذت الكنيسة على عاتقها إنشاء الطرق وصيانتها ورأت أن هذا الأمر على جانب كبير من الأهمية، حتى أعلنت أن رعاية الطرق تعتبر من أعمال البر والتقوى التي يجازى عليها صاحبها بحسن الثواب والغفران، بالضبط كالإحسان والحج. لذلك وجدت من بين المنظمات الدينية في العصور الوسطى منظمة عرفت باسم إخوان الجسر (Fratres Pontis) الغرض منها الإسهام في بناء الجسور على الأنهار وصيانتها[2].

كما دأبت الدول الأوروبية في العصور الوسطى على تشجيع إنشاء الطرق وتأمينها. من ذلك ما حاوله هنري الأول Henry I (٤٩٤-٥٣٠هـ/١١٠٠-١١٣٥م) ملك انجلترا من إنشاء طرق عمومية واسعة تكفي لمرور عربتين متقابلتين وستة عشر فارسا مسلحا جنبا إلى جنب. وقد قام التجار آنذاك بدفع رسوم لإصلاح الطرق التي لم يتم صيانتها مما دفعهم إلى إضافة ما دفعوه من ضرائب إلى أسعار بضائعهم، حتى ارتفعت أسعارها وقل الطلب عليها.

كما نص القانون الإنجليزي على أن تكون الطرق بين أسواق المدن خالية من الأشجار والأحراش لمسافة مائتي قدم على كلا جانبي الطرق المؤدية إلى الأسواق حتى لا يتخذها قطاع الطرق واللصوص أوكارا يختفون فيها.

والواقع أن الطرق التجارية في أوروبا العصور الوسطى كثيرا ما تعرضت لنهب الأمراء والجند المأجورين والمجرمين العاديين، حتى وجد التجار أنه لابد لهم من الاعتماد على أنفسهم لحماية أرواحهم وبضائعهم. لذلك كان التاجر الكبير يستأجر أحيانا بعض الحراس المسلحين لحراسة متاجره عند نقلها من مكان لآخر، وإن كان

---

(1)Thompson, Johnson, Medieval Europe; P. 576.

(٢) بدأ ظهور هذه المنظمات في أوروبا منذ القرن الثاني عشر، والتي أخذت في الانتشار خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر، وكان الغرض منها بناء الجسور والاهتمام بالطرق للتخفيف عن المسافرين وخاصة الحجاج. انظر:

WWW.manadevent.org/cathen/0278/a.htm.

الغالب هو تجمع التجار عند سفرهم على هيئة قوافل لصد أي عدوان مشترك[١]. وقد ظهرت جهود جديرة بالتقدير من قبل قومونات المدن، والشركات التجارية والكنائس والدول لتجديد الطرق البرية والنهرية، ووسائل النقل، فظهرت في فرنسا أول الطرق الملكية الرئيسية، كما ظهر إثنان منها في صقلية Sicily وألمانيا، وظهرت طرق البلاد المنخفضة العسكرية أو الوطنية Heerstraten[٢] . حيث كانت الطرق الرئيسية في أوروبا العصور الوسطى محصورة بين المدن التجارية الكبرى والأماكن الشهيرة بأسواقها ومعارضها مثل سانت دنيس St.Denis بالقرب من باريس Paris، وبروج، ويبرس Ypres، وليل في بلاد الفلاندرز Flanders ولاجني ، بار – سير – أوب في شامبني (إحدى مقاطعات شمال شرق فرنسا) وسانت أبول في بروفانس Provence ومثيلاتها.

فالحركة التجارية الدولية في العصور الوسطى التي كانت مستحيلة حتى نهاية القرن العاشر، بدأت متواضعة في القرن الحادي عشر وانتشرت في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، نتيجة للتسهيلات التي قدمتها الخانات والاصطبلات على طول الطرق. وأهم من ذلك بناء الكباري عبر المسايل المائية[٣]. حيث حقق الأمراء الأمن على الطرق المؤدية للأسواق، من ذلك قيام أمراء شامبني ببسط الحماية على الطرق المؤدية لأسواقهم، حتى أدرك جميع التجار القادمين إليها، منذ القرن الثاني عشر الميلادي، أن معظم الطرق التي توصلهم إلى تلك الأسواق قد تم تأمينها مما حقق رواجا عاليا لها[٤]. وقد برزت العديد من الطرق البرية المهمة والتي تتابع سير التجار الأجانب فيها، مثل الطريق الواقع خلف وادي الرون Rhone، والطريق الممتد من إيطاليا إلى فرنسا عن طريق مونت سيني Mont-Cenis، الأمر الذي أدى إلى ازدهار العديد من المدن مثل مدينة Briancon، التي تتوارى وسط سلاسل

---

(1) Thompson, Johnson, Medieval Europe, P. 576.
سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج٢، ص١٠٦-١٠٧.

(2) Boissonnade, Life and Work; PP. 163 – 164.

(٣) عزيز سوريال عطية، العلاقات بين الشرق والغرب، ص١٦٣.

(٤) السيد الباز العريني، الحضارة والنظم، ص١٢٥.

الجبال، ومثلها الطرق الكبرى التي تمر عبر طريق القديس برنارد St.Bernard والقديس جوثار St.Gothard.

وبالقرب من بلاد الفلاندرز وألمانيا كانت توجد مجموعة من الطرق الكبرى. وكذلك في المنطقة الوسطى كانت توجد الطرق المؤدية إلى مدينة بوردو Bordoux والمؤدية إلى لانجدوك Languedoc عن طريق تور وبواتييه والمؤدية إلى تولوز عن طريق ليموج Limoge عن طريق نافار وكليمنت ولي بوي Lepuy[١]. وبذا انتشرت الطرق السريعة القارية بين إيطاليا وفرنسا، ونعمت أوروبا بقوافل التجار عبر جميع الطرق السابقة وغيرها من الطرق المهمة[٢].

إلا أن ما كان يعترض سير الطرق البرية من صعوبات جعل النقل النهري أكثر تفضيلا، حيث أصبحت القوارب والناقلات النهرية على درجة من الكثرة استلزمت قيام موانئ نهرية ونقابات لعمال النقل المائي في كثير من مدن فرنسا وإيطاليا وألمانيا التي تقع على أنهارها الكبرى، وإن لم يسلم النقل النهري هو الآخر من عدة عقبات أهمها تجمد مياه الأنهار في فصل الشتاء، وأخطار الفيضانات في الربيع، وقلة عمق مجاري الأنهار[٣]. مثلما حدث في السهل الفلمنكي، حيث كان تجري مياه الأهوسة ببطء شديد، فكان من الممكن حفر قنوات تغذيها الأنهار تجعلها صالحة للاتصال.

يرجع تاريخ أقدم هذه القنوات إلى القرن الثاني عشر الميلادي، لكن عددها ازداد في القرن الثالث عشر الميلادي لدرجة كبيرة تشهد على النشاط التجاري في ذلك الإقليم[٤]. إذ ضمانا للملاحة التي كانت قائمة فيها بالفعل بشكل دائم، ثم بناء سدود وحواجز من مسافة إلى أخرى في مجرى المياه. وكانت تسمح مثل هذه السدود بعبور السفن والبواخر الداخلة والخارجة من الأنهار. وكان ذلك يتم بطريقتين مختلفتين،

---

(1) Henri, Sée, Histoire Économique; P. 99.

(2) Boissonnade, Life and Work; P. 164.

(٣) سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج٢، ص١٠٨.

(٤) بيرين، تاريخ أوروبا، ص٩٢.

إحداهما عن طريق إنشاء محطات المياه (Overdragh أو Overdrach)[١] والأخرى موانئ المياه (Portae aquae)[٢].

وكانت التكاليف اللازمة لإنشاء مثل هذه القنوات، في بعض الأحيان تقع على عاتق المدن، وفي بعض الأحيان الأخرى على التجار[٣]. حيث إن الطرق النهرية عموما لم تكن تسلم من فرض مكوس مثل تلك المفروضة على الطرق البرية، ولكن الأمراء الذين حرصوا على جمع هذه المكوس لم يهتموا كذلك بالمحافظة على سلامة مجرى النهر وتأمينه، الأمر الذي دفع تجار المدن النهرية إلى تأليف اتحادات لجمع هذه الضرائب واستغلالها في تطهير مجاري الأنهار وبناء أحواض السفن[٤].

كما تم استخدام أبراج الكنائس وأبراج حراستها لتبين للمبحرين في البحار قرب الوصول إلى اليابسة، وفي بعض الأحيان كانت توقد نيران فوق تلك الأبراج لتستخدم كمنارات. وبعد تفريغ السفن كانت تسحب عادة إلى الشواطئ لعمل الإصلاحات اللازمة[٥].

أما النقل البحري، فعلى الرغم مما اعترض سبيله هو الآخر من أخطار، إلا أنه

---

(١) هي عبارة عن بناء خشبي بمثابة سد أو حاجز لمجرى مياه النهر، ويتم وضعها في الجانب الأعلى من النهر وفي الجانب الأسفل تكون على شكل حدور وانحدار. ويتم وضع رحوية، أي آلة على شكل بكرة عمودية ضخمة تساعد في سحب وجر الزوارق إلى البر أو الشاطئ. وأقدم المنشآت من ذلك النوع وجدت منذ القرن الثاني عشر الميلادي. عن ذلك انظر:

Pirenne, les overdraghes et les portes d'eau en flandre; P. 139.

(٢) يتم إنشائها على هيئة سد أو حاجز يقام بواسطة ألواح من الخشب السميك والمركبة فوق بعضها البعض، وملتصقة في نهايتها في بناء هائل أو ضخم، ويتم إنشاء ملفاف (أي آلة لرفع الأثقال) فوق هذا البناء الضخم، والذي يكون على شكل قبة أعلى السد، وكانت هذه الآلة تساعد في رفع الألواح الخشبية بما يتناسب مع مرور السفن، وكان يتم سحب هذه الألواح من خلال التيار الهوائي أو يتم = = رفعها من خلال الحبال التي يتم جرها بواسطة الرجال أو الخيول. مع الحرص على تحديد أيام فتحها بعناية تجنبا للحوادث. عن ذلك انظر:

Pirenne, les Overdraghes et les Portes d'eau en Flandre; P. 140.

(٣) بيرين، تاريخ أوروبا، ص٩٢.

(٤) سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج٢، ص١٠٨.

(٥) بيرين، تاريخ أوروبا، ص٩٢.

أحرز تقدما كبيرا عن النقل البري خلال العصور الوسطى[١]. على أن التجار الذين يسافرون بحرا كانوا أيضا معرضين للنهب وخاصة في الطرق المهجورة المخيفة. فإذا غرقت إحدى السفن فإن عمال الموانئ يقومون بالاستحواذ على ما يلقيه ويقذفه البحر[٢]. لذا فقد قامت الدول بتعديل مثل هذه الممارسات التي تتعارض مع التقدم الاقتصادي. فكان السيد يعتبر كل ما يلقيه البحر إلى الشاطئ من حطام السفن الغارقة من حقه لكن ذلك تعدل وتغير وفق معاهدات[٣]. من ذلك قيام الملك هنري الثاني Henry II ملك انجلترا عام ٥٧٢هـ/١١٧٦م، بإلغاء ذلك الحق ومنح التجار عموما وتجار ألمانيا خاصة تجار ليوبك Lubeck حق الحصول على جميع البضائع الخاصة بهم والمشحونة على متن السفن التي تغرق على الشواطئ. حتى لا تسلب هذه البضائع من أصحابها الحقيقيين ساعة الخطر وهو ما كان يعرف "سلب حطام السفن"[٤]. إذا فإن الأخطار التي تعرض لها التجار كانت في نطاق جميع عمليات النقل إلا أن القومونات بذلت ما في وسعها من أجل تأمينها قدر المستطاع.

لم تكن المشاكل التي واجهها التجار تتعلق بمشاكل التقلبات الجوية وما ينتج عنها فحسب، ولكن هناك مشكلة احتمال إلغاء المعرض أيضا بقرار من الملك وإن كان ذلك لا يحدث إلا بالنسبة للمعارض الصغيرة فحسب[٥]. من ذلك أن مدينة لندن London عندما أقامت معرضا جديدا في ويستمنستر Westminster عام ٦٤٦هـ/١٢٤٨م، قررت إلغاء جميع المعارض الأخرى التي يستغرق انعقادها عادة نفس المدة في انجلترا، حتى يتمكن أكبر عدد من

---

(١) سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج٢، ص١٠٨.

(2) Duruy, Histoire de Moyen Age; P. 355.

(٣) بيرين، تاريخ أوروبا، ص٩٤-٩٥.

(4) Grant of Freedom from Wreck to Men of Lubeck by Henry II. In: Sartorius, Urkundlich Geschichte; Vol. II, A.D. 1176, P. 8.

(5) Physical Inconveniences at a Fair. In: Cave, Coulson, A Source, Book, P. 124.

التجار والجمهور من حضور معرض Westminster ، ليزيد الإقبال عليه[1]. وقد صادف التجار الذين قاموا بعرض سلعهم هناك مشاكل كثيرة منها عدم وجود مأوى لهم سوى الخيام ونظرا لتقلبات اتجاهات الريح في هذا الوقت من السنة فقد تعرضوا للبرد القارس وللأمطار التي تفسد البضائع وكذلك للجوع والعطش إلى جانب تلطخ أقدامهم بالطين وتعفن بضائعهم بسبب كميات المطر الشديد[2]. إلا أن كل تلك المخاطر والظروف الصعبة التي تعرض لها التجار لم تثنهم عن ممارسة التجارة أو التوقف عن التوجه إلى الأسواق.

يتضح مما سبق أن دور الدولة والكنيسة كان بارزا جدا في تدعيم الأسواق والعمل على تذليل كافة الصعوبات التي واجهتها مما حقق رواجا تجاريا كبيرا، إلى جانب أن جميع الجهود تكاتفت، سواء من السلطة أو الكنيسة أو التجار أو كافة الهيئات والمؤسسات التجارية، من أجل صيانة الطرق والمواصلات وتأمين العبور إلى الأسواق والمعارض وتقليل المخاطر التي يتعرض لها القادمون إلى تلك المعارض.

(٥) أنواع المتاجر التي تخصصت فيها الأسواق الأوروبية :

وصلت التجارة الأوروبية خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، إلى درجة عالية من النضج. حتى فاقت هذه التجارة في كثافتها النشاط التجاري للإمبراطورية الرومانية خلال قمته. ووصل التجار بمتاجرهم إلى جميع بلاد العالم شرقا وغربا، وتعاملوا مع الأسواق المختلفة[3]. باحثين داخلها عن مختلف أنواع السلع والبضائع التي هم في حاجة إليها، والتي تحقق لهم الغنى والثراء التجاري الذي يبحثون عنه متحملين في سبيل ذلك كل المصاعب والأخطار التي تواجههم. ونظرا لما تمتعت به الأسواق أو المعارض التجارية من أنها تتعامل مع تجارة

---

(1) Matthew of Paris, English History, Translated by J.A. Giles, Vol. II, London, 1852, A.D. 1248, P. 272.

(2) Matthew of Paris, English History, Vol. II, A.D. 1248, P. 272.

(3) Adelson, Medieval, Commerce, P. 87.

الجملة وأن الناس يقدمون إليها من شتى البقاع[١]، اكتسبت بذلك أهمية كبيرة، جعلتها مستقلة عن المكان الذي تعقد فيه[٢].

ومن هذا المنطلق أصبح من المتوقع الحصول على مختلف أنواع المتاجر من داخل هذه الأسواق، لذا فقد حرص التجار على جلب مختلف السلع إليها من جميع أنحاء العالم، وهو ما جعلها تتسم بسمة دولية عالمية. إلى جانب السلع المحلية التي توافرت في المكان المعقود فيه مثل هذه الأسواق. فأصبحت معارض شامبني Champagne على سبيل المثال، مكانا لاجتماع التجار القادمين من إيطاليا وأولئك القادمين من الشمال، حيث حمل الإيطاليون معهم منتجات إيطاليا مثل القماش، والسيوف الحادة وخيول الحرب اللومباردية. إلى جانب الحرائر والسكر والتوابل التي حصلوا عليها من الشام، بينما جلب تجار البلاد الشمالية النائية الفراء والعسل،ومنتجات أخرى من غاباتهم الشهيرة وقدمت الفلاندرز Flanders ، الأقمشة الفلمنكية الشهيرة، ومن انجلترا تم جلب إنتاجها من القصدير المتميز.

فظلت هذه المعارض الغنية بمثل هذه المنتجات، لمدة مئتي سنة تقريبا هي المعارض الأكثر أهمية في أوروبا الغربية، لكنها لم تكن المعارض الوحيدة على الإطلاق[٣].

فقد وجد العديد منها، على سبيل المثال، الأسواق اللومباردية، وأسواق الفلاندرز. وتخصصت الأولى بالمتاجر القادمة من الشرق والتي انتقلت عبرها إلى مختلف البلاد الأوربية[٤]. إلى جانب تخصصها وتميزها بصناعة الأقمشة، حيث وجد بداخلها العديد من المراكز المتخصصة في هذه الصناعة منها ميلان Milan. كما تميزت البندقية Venice ولوكا Lucca بصناعة الحرير[٥]، وبرعت كذلك جنوه Genoa بصناعة

---

(1) Jarrett, Bede, O.P., Social Theories of the Middle Ages, P. 164.

(٢) بيرين، تاريخ أوروبا، ص٩٩.

(3) Painter, History of the Middle Ages; P. 224.

(٤) سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج٢، ص٩٩.

(5) Thompson, Johnson, Medieval Europe; PP. 566, 567.

الحرير المطرز بخيوطه الذهبية بالإضافة إلى المخمل (القطيفة) [١].

أصبحت صناعة الأقمشة الصناعة الرئيسية لإيطاليا، حيث أنتجت أنواعا متطورة من القماش المصبوغ. ففي القرن الثاني عشر الميلادي حدث تطور رائع لصناعة الأقمشة في لومبارديا Lombardy[٢] إلى جانب غناها بالمنتجات القادمة من الشمال كالخيول والعبيد والقماش الصوفي والكتان والقنب والقصدير والسيوف، حيث جاء الشماليون إلى إيطاليا حاملين معهم سلعهم الخاصة على أن يعودوا بالمنتجات المتميزة[٣]. كما تميزت بعض مدنها بسلع معينة، مثل البندقية Venice التي أصبحت ذائعة الصيت من أجل شهرتها في صناعة الزجاج وشغل المعادن ولبراعتها في الحرف الأخرى[٤]، كصناعات الخشب والصياغة والصهر وطرق الذهب وصناعة بعض الأقمشة (كالدمقس الأحمر والأجواخ المفضضة والمذهبة) وصباغة الأقمشة والقراميد[٥]، وتحضير الجلود والفراء وصناعة الأغذية[٦].

كما امتازت العديد من المدن اللومبارديا بوفرة منتجاتها، مثل ميلان Milan، حيث قدم بونفران دي ريفا Bonvesin de Riva في وصفه لها عام ٦٨٧هـ/١٢٨٨م وصفا دقيقا لخصوبة أراضيها ووفرة كل السلع المفيدة للاستهلاك البشري، إذ أنها غنية بكل أنواع الحبوب كالقمح وحب الجاودار[٧]، وحب الدخن، وغيرها من المنتجات الزراعية التي تزيد عن حاجة السكان لذا تنقل لشعوب ما وراء الألب. إلى

---

(١) محمود عمران، حضارة أوروبا، ص١٦١.

(2) Cam. Med. Hist, Vol. 5, P. 239.

(3) Adelson, Medieval, Commerce, PP. 65 – 66.

(4) Stephenson, Medival History, P. 242.

(٥) القراميد : صناعة القراميد، إحدى الصناعات التي ظهرت في أوروبا، والتي حلت محل الأسقف المصنوعة من القش أو الخشب لتجنب الحرائق، ونظرا لمزايا صناعة السقوف من القراميد فقد فرضت مدينة لندن استخدام القراميد في صناعة الأسقف عام ٦٠٩هـ/١٢١٢م، في عهد الملك يوحنا. انظر: محمود عمران، حضارة أوروبا، ص١٦١.

(٦) شارل ديل، البندقية جمهورية أرستقراطية، ص٣٥.

(٧) نبات الجاودار : يجود زراعته في التربات الفقيرة والمناخ البارد، لذا فيزرع في فرنسا، على سبيل المثال، في الأودية المرتفعة من الهضبة الوسطى والفولج والألب. عن ذلك انظر: جودة حسين جودة، قارة أوروبا، ص١٢٧.

جانب الفواكه كالكريز الحامض والحلو من كل الأنواع حيث يزرع ويخرج بريا أيضا وينمو بكميات كبيرة حتى أنه تخرج منه في اليوم الواحد أكثر من ستين عربة إلى بوابة المدينة جاهزة للبيع في أي وقت من منتصف مايو حتى منتصف يوليو تقريبا، كما يتوفر بها الخوخ والبرقوق والكمثرى وتفاح الصيف والتوت والتين بكميات كبيرة والعنب من كل الأنواع، وبرغم قلة اللوز بها إلا أن الياميش يتمتع به السكان بكميات كبيرة طوال العام، مع طعامهم. والفلفل لطهي اللحم في الشتاء وكذلك الزيوت حيث ينمو الزيتون في بعض البلاد لكنه لا يوجد بكثرة.

ومما ذكره بونفزان أن البلح والتوابل والفلفل وأي من توابل ما وراء البحار لا تنمو هناك غير أنه لا يأسف على ذلك لأنها لا تنمو إلا في المناطق الحارة[١]. غير أنه ليس من شك في أن هذه السلع كانت تتوفر بها حيث كان يتم جلبها من الشرق بكميات وفيرة إلى داخل المدن الإيطالية بصفة خاصة ومدن أوروبا بصفة عامة.

أما فيما يتعلق بالفلاندرز Flanders فقد كانت غنية بسلع شمال وجنوب أوروبا بحكم موقعها إضافة إلى صناعة الأصواف التي تفوقت فيها[٢]. حيث أصبحت كل من غنت Ghent ، وآراس Arras ، والقديس أومير St.Omer مراكز لإنتاجها. وقد نقلت هذه الأصواف إلى فرنسا نفسها وإلى انجلترا بالإضافة إلى أماكن أخرى[٣]. حيث كانت أقمشة الفلاندرز الصوفية تجد سوقا رائجة في كافة أنحاء أوروبا[٤].

ونظرا لأهمية النبيذ في أوروبا فقد كان يتم نقله وشحنه من إقليم إلى آخر، حيث

([1]) Bonvesin della Riva, on The marvels of the city of Milan, 1288, In Praise of Milan's Fextility and Abundence of all Goods, in Lopez, Raymond, Medieval Trade; PP. 66 – 68

([٢]) سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج٢، ص٩٩.

([3]) Adelson, Medieval, Commerce, P. 65.

([4]) Stephenson, Medieval History, P. 242.

كانت التجارة الفرنسية نفسها تهتم بشكل كبير بالنبيذ[١]، لأنها كانت غنية به خاصة بسبب غزارة إنتاج مزارع العنب الكبيرة في المناطق التي تنتج للتصدير[٢]. فكان يتم شحن منتجات مزارع العنب الفرنسية إلى نورماندیا وانجلترا والفلاندرز وأماكن أخرى. وهناك بعض الشك في أن القماش الفلمنكي تم شراؤه بمبيعات النبيذ الفرنسي[٣].

إذا فإن السلع كان يتم تبادلها عبر أسواق أوروبا، حتى أنه يمكن القول بأن جميع أنواع المتاجر قد تواجدت داخل معارض أوروبا العصور الوسطى، حتى في حالة عدم تواجدها داخل الإقليم ذاته فإنه يتم جلبها من مناطق تواجدها إلى داخل المعرض.

إذ تزودنا المراسيم الموثقة من محفوظات جنوه بمعلومات مفادها أن الجنوية استوردوا قبل بداية القرن الثالث عشر الميلادي، ملبوسات من آراس Arras ، وليل Lille ، وغنت Ghent ، ويبرس Ypres وغيرهم . و أن وضع مينائها المتميز مكنها من تصديرها إلى الشرق، بل إن الجنوية سرعان ما قاموا بدور كبير في سرعة تقدم هذه التجارة[٤].

عموما فقد شهدت أوروبا العصور الوسطى انتقال مختلف أنواع البضائع بين أسواق مدنها المختلفة، فقد كان السمك والفراء والعسل والزفت (أو القار) والخشب ونبات الجاودار، ومنتجات أخرى من المناطق السلافية كانت تحتاج إليها بلدان أوروبا الغربية، حيث عملت هامبورج Hamburg ، وبريمن Bremen كنقاط لجمع المنتج الزراعي من منطقة الألب Elbe ، والتي كان يتم شحنها إلى الأماكن المختلفة في كافة أنحاء شمال أوروبا. فقد حملوا من الغرب الملح والسلع المصنعة التي كان يتم تبادلها مع السلع الشرقية. إذ كان الملح مهما جدا لحفظ الأسماك[٥]. كما كان الحديد من

---

(1) Adelson, Medieval, Commerce, PP. 65, 67.

(2) Gauvard, le France au Moyen Age; PP. 258 – 259.

(3) Adelson, Medieval, Commerce, PP. 65, 67.

(٤) بيرين، تاريخ أوروبا، ص١٤١.

(5)Adelson, Medieval, Commerce, P. 87.

السلع المطلوبة وكذلك الأحجار والأخشاب التي كانت نادرة في بعض البلاد. وقد حمل التجار الفرنسيون النبيذ إلى انجلترا وعادوا بالصوف والجلود. وجلب الألمان من البلطيق Baltic السلع الشرقية التي كانت قد نقلت عن طريق روسيا. بالإضافة إلى الفراء والخشب (أو الآكام) والكهرمان وغيره من المنتجات البحرية[١]. وهو ما حقق ثراءا كبيرا للتجار يظهر ذلك من خلال دراسة لأملاك واحد من هؤلاء التجار، يدعى أرمانو Armano ويعمل تاجرا للجلود من مدينة بونفيكيو Bonifacio[٢]، حيث توضح لنا تلك الدراسة وضع التجار المتنامي في البلاد الحديثة على امتداد الحدود مع العالم التجاري.

كان موقع المدينة على طريق التجارة قد جعل لها مستقبلا واعدا. فالسفن التي تحمل الشحنات من ليجوريا Liguria إلى شمال أفريقيا والشرق كان من الأفضل لها أن تتوقف عندها. وبعد أقل من خمسين سنة من تأسيسها كانت المدينة تشتري وتبيع كل أنواع القماش من شمال فرنسا والفلاندرز، ماعدا النوعيات غالية الثمن. وقد اشترت التوابل واستوردت بضائع أخرى. فكانت تجارتها نشطة بما يكفي لتقوية أرمانو Armano لشراء منازل وأنصبة في السفن من أرباح أعماله التجارية[٣].

وقد حررت الوثيقة الخاصة بأملاك أرمانو Armano في ٢٨ ديسمبر عام ٦٣٧هـ/١٢٣٩م حيث ذكرت وأوضحت فيها كلا من أورنجا Orenga زوجته وريكافينا Riccafina ابنته، عن رغبتهما في تحديد السلع التي كانت تخص أرمانو تاجر الجلود المتوفى، لإعداد بيان لحصر تركته، حيث وجدا فيها أنواعا عديدة من الأقمشة، من أمثلتها، أربع قطع قماش أخضر بحالتها، قطعة من قماش قرمزي اللون، وقطعتين من قماش جابوكسيوم Gaboxium[٤]، سبعة قصبات، وقدم من القماش

---

(1) Stephenson, Medieval History, P. 242.

(٢) أسست مدينة بونفيكيو Bonifacio من قبل المستوطنين الجنويين عام ٥٩٢هـ/١١٩٥م، واختاروا لمكانها صخرة تطل على الطريق بين كورسيكا Corsica وسردينيا Sardinia. وقد تميزت بتوافر الملح والجبن والجلود، وهي منتجات شائعة في البلاد غير المتطورة. عن ذلك انظر: Lopez, Raymond, Medieval Trade; P. 95.

(3) Bonifacio, December 28, 1239. in; Lopez, Raymond, Medieval Trade; P. 95.

(٤) يذكر المؤرخ لوبيز Lopez أنه لم يتمكن من تحديد نوعية هذا القماش. عن ذلك :

=

الأخضر ، وإحدى عشر قصبة من القماش الوردي، وعشرة أغطية مصبوغة، وكذلك غطاء صوفي بغدادي، أربعة عشر قطعة من الفوستيان، وبواقي أقمشة، وحزمة من أقمشة سردينيا، وغطاء من فراء الثعالب، وغطاء من الفراء للقدمين، إلى جانب أنواع أخرى من الأقمشة والأدوات والأطعمة والمعادن. إلى جانب ذكرهما أسماء الأشخاص والمبالغ التي أخذها منهم للاشتراك بها في أعمال تجارية[١]. الأمر الذي يظهر التنوع الكبير في أنواع المتاجر التي تواجدت داخل الأسواق الأوروبية مما حقق انتعاشا لهذه الأسواق وربحا كبيرا للتجار.

إلى جانب كل أنواع المتاجر والسلع السابقة التي توافرت في أسواق أوروبا، أمدهم الشرقين (الأدنى والأقصى) بكم هائل من المتاجر والسلع التي انتشرت داخل جميع أسواق الغرب الأوروبي، حيث قدم التجار الغربيون إلى الشرق يبيعون ما جلبوه من سلع، ويملأون سفنهم الشراعية المجدافية ببضائع جديدة، والتي كانوا يتوغلون من أجلها إلى داخل المناطق الإسلامية، وإلى الأسواق المحلية. فكانوا ينقلون إلى أوروبا البضائع المشتراه في مدن المشرق البحرية أو في مراكز أبعد للتجارة الإسلامية، فنقلوا الأقمشة الحريرية والقطنية من صنع الحرفيين الشوام المهرة، والسلال بالفواكه، وجوزة الطيب[٢].

كما تلقى الغرب من المشرق الحرير الخام، والقطن من بلدان آسيا الداخلية، والمسك من التيبت[٣]، والزجاج المصري، والمصنوعات الزجاجية والأصباغ والتوابل من الهند

=

Lopez, Raymond, Medieval Trade; P. 96.٢٢ حاشية

(1) Lopez, Raymond, Medieval Trade; PP. 95 – 97.

(٢) جوزة الطيب: ثمرة شجرة تنبت في الهند وجزائر الهند الشرقية – فإذا احمر لونها تجمع وتجفف في الشمس فيصير لونها برتقاليا، وقد استعملها العرب في الطب والتوابل وأشهر أسواقها الاسكندرية وسمرقند. عن ذلك انظر: الشيزري، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق/ السيد الباز العريني، القاهرة، ١٩٤٦، ص٥٠، حاشية رقم (٥).

(٣) المسك: مادة تؤخذ من حيوان خاص يوجد بالتبت والصين والهند الصينية وجزائر سيلان وجاوة واليابان، ومسك التبت أطيب أنواع المسك رائحة وهو إلى جانب فائدته العطرية كان يستخدم في معالجة المصابين بالخفقان وضعف القلب. عن ذلك انظر: الدمشقي، الإشارة إلى محاسن التجارة، تحقيق/ البشري الشوربجي، القاهرة، ١٩٧٧م، ص٣٦-٣٧، حاشية رقم (٢٧).

(الفلفل[١]، والقرفة) والصمغ الشجري، والبخور والعنبر[٢]، من الجزيرة العربية، واللؤلؤ والأحجار الكريمة[٣]، والعاج[٤]، من بلدان أفريقيا. وكثير غيره كان يتم تصريفه في الأسواق الأوروبية الغربية.

وكانت هذه المتاجر تدر أرباحا كبيرة جدا وكان يتناولها في المقام الأول التجار من إيطاليا الشمالية[٥]. فعاد التجار الإيطاليون بالتوابل، والقرفة، والزنجبيل[٦] ، والفلفل، والسهيل[٧]، والثوم، وجوزة الطيب والتي تعلمت أوروبا كيفية التعامل مع هذه السلع خاصة لإخفاء طعم ورائحة اللحم غير الطازج. وقد استعانوا بالعرب والهنود وأهل سيلان والملايو والصين، كما أحضروا العقاقير مثل الكافور، ونبات

---

(١) الفلفل : كان أهم التوابل طلبا في أوروبا، اشتدت الرغبة في الحصول عليه، وكان مصدر إنتاجه ساحل المالابار وكلكتا وسيلان والهند الصينية، وكان يستخدم في أوروبا كعلاج لبعض الأمراض ويدخل في صناعة النبيذ وحفظ الطعام. عن ذلك انظر: نعيم زكي، طرق التجارة، ص١٩٩، عفاف صبره، العلاقات بين الشرق والغرب، ص١٦٨.

(٢) العنبر : مادة صلبة تشبه الشمع لها رائحة ذكية عطرة نفاذة إذا ما احترقت وتحتل مكان الصدارة بين أنواع العطور الممتازة. انظر: نعيم زكي، طرق التجارة، ص٢٢٩.

(٣) كالياقوت والزمرد والفيروزج وغيرها. عنها انظر: الدمشقي، الإشارة إلى محاسن التجارة، ص٣٢-٣٦.

(٤) العاج : كان من السلع المهمة المصدرة إلى الغرب، وقيل أنه يأتي من أفريقية، والبعض قال أنه يأتي من الهند، وكان يصنع منه الأثاث، وتحف المعابد والتماثيل، ويقال أنه يطحن ويدخل في بعض العلاجات الطبية. عن ذلك انظر: نعيم زكي، طرق التجارة، ص٢٤١-٢٤٢.

(٥) ميخائيل زابوروف، الصليبيون في الشرق، ترجمة/ إلياس شاهين، دار التقدم، موسكو، الاتحاد السوفييتي، ١٩٨٦م، ص١٤٩.

(٦) الزنجبيل : من أهم توابل العصور الوسطى، يدخل في صناعة العقاقير الطبية والطهي وحفظ وتحضير الخمور ويزرع بكميات كبيرة في الهند والصين وسمرقند وبعض البلاد العربية . عن ذلك انظر: نعيم زكي، طرق التجارة، ص٢٠٥.

(٧) السهيل : أو الحبهان من السلع التي استخدمت في الطب والطعام، وعرفت كدواء حيث استخدم في أوروبا العصور الوسطى بكثرة، وقد عرفوا فوائده عن العرب والفرس، كما أضيف إلى الطعام كتابل يحفظها خاصة في الغرب المسيحي لطول الصوم عندهم، ويرد من الهند الصينية وكانافور وقالقوط وأجوارهما. عن ذلك انظر: نعيم زكي، طرق التجارة، ص٢١٨.

الكاسيا[١]، والراوند[٢]، بالإضافة إلى البخور والبلسم[٣]، والعطور. أما صناعة النسيج في الغرب فقد اعتمدت على الشرق في المواد الخام الأولية مثل القطن[٤]، والحرير والصباغ مثل النيلة[٥]، والشبة، وهي سلع مهمة في معالجة القماش قبل القيام بعملية الصباغة. كما كان هناك عاج يأتي من إثيوبيا،ولؤلؤ يأتي من سيلان Ceylan ومن الخليج الفارسي، وجميع الأحجار الكريمة والتي ازدادت أهميتها في أعين الغربيين وذلك لجمالها البارع والصفات العجيبة التي تخص بها[٦].

كما قدمت الحرف المحلية بعض السلع النفيسة للتصدير، مثل بعض

---

(١) نبات الكاسيا : المعروف بـ"خيار شنبر" وهو نوع من الخروب كبير الحجم، ويحمل قرونا خضراء طويلة لها حب حلو المذاق، تستعمل كدواء مسهل، وكان يصدر في العصور الوسطى إلى أوروبا من الاسكندرية. عن ذلك انظر: الشيزري، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص٤٦،/ حاشية رقم (٣).

(٢) الراوند : ويعرف بالراوند الصيني وهو ساق نبات إذا استخرج من الأرض وهو رطب يتشقق وهذه تثقب وتنظم في خيوط وتعلق في الهواء حتى تجف، يعالج أمراض الكبد والكلى. عن ذلك انظر: ابن البيطار، الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، ج٢، القاهرة، ١٢٩١هـ، ص١٢٩-١٣١.

(٣) البلسم : والبلسان شجرة كانت تنبت بعين شمس بالقرب من القاهرة، وتشرط الشجرة في وقت معين من السنة ويجمع ما يرشح منها فلا يتجاوز بضعة أرطال من الدهن الطيب الرائحة. استعمل في أوروبا في الطقوس الدينية المسيحية. انظر: عفاف صبره، العلاقات بين الشرق والغرب، ص١٦٩ حاشية ١٩٨.

(٤) كان للبنادقة باع طويل في تجارة القطن في الشام وظلوا كذلك حتى أواخر العصور الوسطى. عن ذلك انظر:

Ashtor (E.), Studies on the Levantine Trade in the Middle Ages, The Ventian Cotton Trade in Syria in the Later Middle Ages, Studi Medievali XVII, London, 1978, PP. 675.

(٥) النيلة : نوع من الأصباغ كانت تحتاجه أوروبا في العصور الوسطى، وكان يجلب من الهند. انظر: عفاف صبره، العلاقات بين الشرق والغرب، ص١٦٩، حاشية (١٩٩).

(6)Thompson, Johnson, Medieval Europe; P. 565.

المصنوعات من الفخار، ومنسوجات من الصوف ووبر الماعز، والبروكار[١]، وأواني صور الزجاجية[٢].

حيث مثلت الحروب الصليبية أكبر عامل منفرد في توسيع مدى التعامل التجاري في أوروبا، وبينها وبين الشرق[٣]، حيث قام التجار الإيطاليون بتصدير المواد والسلع التي تنتجها المدن الصليبية دون وساطة أحد. ولكن نتيجة الطلب المتزايد على سلع الشرق الأقصى في الغرب الأوروبي، فإن جزءا رئيسيا من النشاط التجاري للإيطاليين في المدن والإمارات الصليبية، تركز في تصدير هذه السلع. ولهذا كان لابد للتجار الإيطاليين من الاعتماد على تجار آخرين يلعبون دور الوسطاء، في نقل السلع وجلبها من الشرق الأقصى إلى المدن والموانئ الصليبية في الشام[٤]. فقد شهدت تلك السلع تنوعا كبيرا، كما كانت محط أنظار الغرب حيث تميزت مدن وبلدان الشرق الأقصى بغناها بالعديد من البضائع والسلع التي انتشرت منها عبر أرجاء العالم، فمدن فارس تميزت بوجود تجار وأعداد غفيرة من الصناع، الذين يصنعون أنواعا كثيرة من أنسجة الحرير والذهب، كما ينمو القطن بوفرة في هذه البلاد[٥]. وهي من السلع أساسية التصدير إلى الغرب. كما كانت مدينة يزدي، مدينة كبيرة على تخوم فارس، تدور فيها تجارة عظيمة. فهناك نوع من قماش الحرير والقصب (المذهب) يصنع بها ويعرف باسم اليزدي، نسبة إلى المدينة، ويحمله التجار منها إلى جميع أرجاء العالم[٦]. كما تميزت مدينة كريمان، الواقعة على الحدود الشرقية لبلاد فارس، بتواجد الأحجار

---

(١) البروكار : نوع من أنواع الحرير الشرقي كثر الطلب عليه في أوروبا، وكان يجلب من الاسكندرية وطرابلس ودمشق وأنطاكية وقبرص وآسيا الصغرى والصين وإيران. عن ذلك انظر: نعيم زكي، طرق التجارة، ص٢٤٦.

(٢) بالار . م . ، الحملات الصليبية والشرق اللاتيني من القرن الحادي عشر إلى القرن الرابع عشر، ترجمة/ بشير السباعي، ط١، عين للدراسات والبحوث، القاهرة، ٢٠٠٣م، ص٣١٠.

(٣) نقولا زيادة، عالم العصور الوسطى، ص١٩١.

(٤) عادل زيتون، العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب، ص١٧٦.

(٥) ماركو بولو، رحلاته، ترجمة/ وليم مارسدن، ترجمه إلى العربية/ عبد العزيز جاويد، ج١، ط٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٥م، ص٧٠.

(٦) ماركو بولو، رحلاته، ج١، ص٧٢.

النفيسة، في جبالها، والتي تسمى بالفيروزج[١]، إلى جانب عمل النساء والصغار بالإبرة وإنتاجهم وشيا من الحرير والذهب، متنوع الألوان والرسوم، يمثل الطير والحيوان، مع أنماط زخرفية أخرى[٢].

وقد صممت هذه الأشغال للستائر وأغطية الفراش والنمارق اللازمة لأماكن الأغنياء[٣]. بينما تميزت مدينة هرمز[٤]، بمينائها حيث يرتاده التجار من كل أرجاء الهند، وهم يجلبون التوابل والعقاقير، والأحجار الكريمة واللؤلؤ، ومنسوجات الذهب، كما يجلبون أنياب الفيلة (العاج) وأنواعا أخرى مختلفة من البضائع، حيث يبيعون هذه البضائع لمجموعة مختلفة من التجار، يتولون توزيعها في كل أرجاء العالم[٥].

على أن جزيرة جاوة، كانت زاخرة بالسلع الثمينة. فالفلفل وجوزة الطيب، وسنبل الطيب والخلنجان[٦]، والكبابة الصيني والقرنفل[٧]، وجميع

---

(١) الفيروزج: نوع من الأحجار الكريمة، أفضله ما غمقت زرقته ويسمى الأبراسنحاقي. وما كان على غير هذه الصفة فهو حجر رخو. عن ذلك انظر: الدمشقي، الإشارة إلى محاسن التجارة، ص٣٤-٣٥.

(٢) قد امتلأت حوانيت ومتاجر غرب أوروبا بواردات الشرق من هذه السلع، والتي عليها رسوم غزلان وسباع وزرافات ووحوش وأشخاص ومعظمها كان يرد من الهند والصين وليس من أقطار مسيحية أو إسلامية، إذ أنهم لا يميلون إلى هذا اللون من الرسوم على الملابس. عن ذلك انظر: نعيم زكي، طرق التجارة، ص٢٤٦.

(٣) ماركو بولو، رحلاته، ج١، ص٧٣.

(٤) هرمز: كانت هرمز المركز الرئيسي لتجارة الخليج الفارسي طوال العصور الوسطى وهي "فرضة إقليم كرمان ومركز تجارته وتجارة إقليم سستان وسوقها الطبيعي وتبعد عن الساحل بحوالي ١٢ ميلا". وأتى إليها تجار الشام عن طريق مصب نهر دجلة والفرات للحصول على متاجر الهند والصين وبيع متاجرهم ومتاجر أوروبا الواردة إليهم، إذ كانت هرمز في الواقع تمثل إلى حد ما مركزا لتبادل السلع الشرقية والغربية. عن ذلك انظر: نعيم زكي، طرق التجارة، ص١١٨-١١٩.

(٥) ماركو بولو، رحلاته، ج١، ص٧٨.

(٦) الخلنجان: من المواد كثيرة الاستعمال في الطب، وشجرته تعرف باسم "خسرو دار"، وهو يرد من الهند وتستعمله أوروبا في الطب والطهي. عن ذلك انظر: ابن البيطار، مفردات الأدوية، ج١، ص٧٩-٨٠.

(٧) القرنفل: براعم بها ثمار تحملها أغصان شجرة معروفة بهذا الاسم وكانت تستعمل أغصان الشجرة وأوراقها في الطب والأطعمة والأشربة، وموطن القرنفل جزائر الملوك بالهند الشرقية، وأشهر أسواقه في العصور الوسطى القسطنطينية والاسكندرية.

عن ذلك انظر: الدمشقي، الإشارة إلى محاسن التجارة، ص٣٩، حاشية (٣٠).

=

الأنواع الأخرى الثمينة من التوابل والعقاقير هي من منتجات الجزيرة، الأمر الذي يستدعي أن تزورها كثير من المواكب المحملة بالبضائع، التي تدر على أربابها مكاسب ضخمة. ويفوق مقدار الذهب الذي يجمع هناك كل تقدير وكل تصور. ومنها يتم الحصول على الشطر الأكبر من التوابل التي توزع بكل أرجاء العالم[1].

أما مالابار، التي تعد مملكة متسعة الأطراف بالهند الكبرى، تقع جهة الغرب، فتوجد بها وفرة هائلة من الفلفل والزنجبيل والكبابة وجوز الهند، كما يصنع بها أنعم وأجمل ما يمكن أن يوجد بأي بلد آخر من بلاد العالم من أنواع القطنيات. ويأتي التجار إلى تلك الأماكن فيشحنون السفن بتلك البضائع إلى عدن[2]، حيث تحمل منها إلى الاسكندرية.

نظرا لأن الحرير كان من السلع الرئيسية المصدرة إلى الغرب لذا فقد اهتمت المدن الشرقية بصناعته مثل الموصل شمال العراق، التي تم بها صناعة جميع الأنسجة الذهبية والحريرية التي تسمى بالموسلين، نسبة للموصل، كما أن جميع التجار الذين ينعتون "موسوليني"، والذين يحملون الأفاوية والعقاقير، بمقادير ضخمة من إقليم إلى إقليم ينتمون إلى تلك الولاية[3].

=

وانظر كذلك: الشيزري، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص٤٩، حاشية (١٢).

(1) ماركو بولو، رحلاته،ج٣، ط٢، القاهرة، ١٩٩٦م،ص٢٥.

(2) كانت عدن ثغر مهم في التجارة، خاصة لتجارة الشرق الأقصى، حيث أتى إليها الناس من كل بقعة ومن كل أرض فتمولوا وصاروا أصحاب خير ونعم. وكانت تأتي إليهم السلع من الهند والسند والحبشة وديار مصر وغيرها، وتعد من أشهر مدن اليمن، كما شكلت عدن ميناء ممتازة تؤمها السفن القادمة من الهند محملة بالعقاقير والأفاوية، إذ فيها تتجمع متاجر الشرق والغرب للتبادل فتنقل الأولى إلى مصر فأوروبا وتنقل الثانية إلى الهند فالصين. عن ذلك انظر: بامخرمة، تاريخ ثغر عدن، ج١، ط٢، القاهرة، ١٤١١هـ/١٩٩١م، ص٥٤-٥٥، ابن حوقل، كتاب صورة الأرض، ق١، ص٣٧، ماركو بولو، رحلاته، ج٣، ص٩١، نعيم زكي، طرق التجارة، ص١٣٦-١٣٧.

(3) ماركو بولو، رحلاته، ج١، ص٥٦.

الأمر الذي يدعو إلى فرض أن هؤلاء هم الذين كانوا يستوردون هذه السلع إلى عكا. وما كان يجري في عكا كان يجري أيضا في سائر المدن الساحلية بمملكة بيت المقدس لذلك فإنا نقر بأن التجار الغربيين كانوا يذهبون بأنفسهم إلى أقرب الأسواق الإسلامية طلبا لمنتجات البلاد الآسيوية. أو أنهم لا يذهبون بعيدا عن مقارهم، ويستلمون هذه المنتجات من أيدي الشرقيين المقيمين بجوارهم[١].

كما تميزت بغداد، بصناعة الحرير المغزول بخيوط الذهب (القصب) وكذلك صناعة الدمقس، فضلا عن القطيفة (المخمل) المزينة بأشكال الطير والحيوان. وتكاد جميع اللآلئ المنقولة إلى أوروبا من الهند أن تجري فيها عملية الثقب في هذا البلد[٢]. بينما تميزت تبريز في فارس باعتماد سكانها على التجارة والصناعة بصفة أساسية، حيث صنع بها أنواع مختلفة من الحرير بعضها مخلوط بخيوط الذهب وله أثمان عالية في الأسواق. فهي في موقع بالغ المواءمة للتجارة، بحيث يفد إليها التجار من الهند وبغداد والموصل وكريميور، فضلا عن أصقاع مختلفة من أوروبا، ليشتروا ويبيعوا فيها كميات من السلع. وفي الإمكان الحصول في هذا المكان على الأحجار النفيسة واللآلئ بكميات وفيرة ويحرز التجار المشتغلون بالتجارة الأجنبية ثروات ضخمة[٣].

على أن قائمة المتاجر والسلع الشرقية التي تواجدت داخل الأسواق الأوروبية لم تقف عند الحد السابق، بل إن هناك العديد من السلع الأخرى التي صدرت إلى الغرب والتي منها: العفصة الجوزية[٤]، والزعفران[٥]، والكبر[٦]، والسنامكي[١]، وبهار

---

(١) هايد، تاريخ التجارة، ص١٨٨.

(٢) ماركو بولو، رحلاته، ج١، ص٥٨.

(٣) ماركو بولو، رحلاته، ج١، ص٦٤.

(٤) العصفة الجوزية: ثمرة شجر يكون أحمر اللون عند نضجه فيجفف ويسحق، وكان يستخدم في الأضمدة والصباغة. انظر: الشيزري، نهاية الرتبة، ص٧٢، حاشية (٣).

(٥) الزعفران: يسمى الكركم "الورس" يستخدم في العلاج الطبي وفي الطهي والعطور وألوان الرسم. عنه انظر: نعيم زكي، طرق التجارة، ص٢١٩.

(٦) الكبر: نبات شوكي يعمل منه كامخ بالريف المصري. عنه انظر: الشيزري، نهاية الرتبة، ص٥٩، حاشية (٥).

الهند، والند[٢]، وعود الند[٣]، وخشب الصندل[٤]، واللادن، والمصطكى[٥]، واللبان الجاوي[٦]، والنطرون[٧]، والتوتيا[٨]، والقطران، صبغة الأفيون والمن والقراصيا، والمرجان وحجر البازهر[٩]. كل هذه السلع السابقة وغيرها قد حمل إلى أسواق

=

(١) السنامكي: شجر طيب الرائحة له سنابل صغيرة يجلب من الهند. عنه انظر: الشيزري، نهاية الرتبة، ص٤٤، حاشية (١).

(٢) الند: شجر طيب الرائحة، معروف في التجارة والطب وصناعة الأثاث والصيدلة وموطنه الهند والهند الصينية. عن ذلك انظر: عفاف صبره، العلاقات بين الشرق والغرب، ص١٧، حاشية (٢٠٣).

(٣) العود: خشب شجر طيب الرائحة وهو معروف في التجارة والطب والصيدلة وصناعة الأثاث من قديم الزمان في الشرق والغرب، وموطنه الهند والهند الصينية وجاوة وسومطرة وكانت أسواقه في العصور الوسطى هي القسطنطينية ودمشق وعكا والاسكندرية. عن ذلك انظر: الدمشقي، الإشارة إلى محاسن التجارة، ص٣٨، حاشية (٢٩).

(٤) الصندل: لفظ عربي أخذه الإفرنج عن العرب، وهو شجر يشبه شجر الجوز ويدخل في تركيب الأدوية. عن ذلك انظر: عفاف صبره، العلاقات بين الشرق والغرب، ص١٧٠، حاشية (٢٠٦).

(٥) المصطكى: نوع من أنواع البخور يحصل عليه من جذع شجرة يكثر زراعتها في بعض جزر البحر المتوسط وأهمها جزيرة خيو، لذا يعرف هذا النوع باسم المصطكى الخيوسي نسبة إليها. عن ذلك انظر: نعيم زكي، طرق التجارة، ص٢٣٢-٢٣٣.

(٦) اللبان الجاوي: من منتجات سومطرة والهند الصينية، يستخدم في العقاقير الطبية ويؤخذ من الشجرة بعد شق جذعها فيسيل منها ويحمل في أوان نظيفة. عن ذلك انظر: نعيم زكي، طرق التجارة، ص٢٣٣-٢٣٤.

(٧) النطرون: كان احتكار للدولة، واستخدم في الصناعة، وخصوصا في الصباغة. عن ذلك انظر: عفاف صبره، العلاقات بين الشرق والغرب، ص١٧١، حاشية (٢١١).

(٨) التوتيا: من العقاقير الطبية، وهو حجر له ألوان عدة منها الأخضر والأصفر والأبيض ويجلب من الهند، وأجود أنواعه الأبيض ثم الأصفر ثم الفستقي. وتستخدم بعد تنقيتها في تحضير سوائل العلاج لأمراض العيون. كما أنه نافع للقروح السرطانية. انظر: نعيم زكي،طرق التجارة، ص٢١٨-٢١٩.

(٩) البازهر: نوع من الأحجار الكريمة، لم يتمكنوا من تحديد صفاته، ولكن يقال إنه ياقوت تعرض للسواد ولعوامل أخرى فأصبح أخضر. انظر: عفاف صبره، العلاقات بين الشرق والغرب، ص١٧٤، حاشية (١٢٧).

عفاف صبره، العلاقات بين الشرق والغرب، ص١٦٩-١٧١، عزيز سوريال عطية، العلاقات بين الشرق والغرب، ص١٧٣.

الغرب الأوروبي، وعلى رأسها أسواق إيطاليا، إذ ليس هناك بلد في أوروبا استورد منتجات الشرق بكميات ضخمة وأشكال شديدة التنوع مثلما فعلت إيطاليا، وذلك بسبب موقعها الجغرافي فقد كان لها صلات كثيرة مع الشرق، وخاصة مع الإمبراطورية البيزنطية التي كانت لها ممتلكات في جنوب إيطاليا، ورافينا، والبندقية، وكان لهذا الجوار تأثير كبير في العلاقات المتبادلة، كما كانت هناك حركة ذهاب وإياب مستمرة بين روما والقسطنطينية[١]. وقد اضطر تجار أوروبا إلى التعامل مع التجار المسلمين من أجل الحصول على هذه السلع لأن تجارة الشرق الأقصى خاصة التوابل كانت تحت يد تجار الكارم[٢]، الذين احتكروا تجارة الهند والشرق الأقصى، وكان مركز نشاطهم الأول في المحيط الهندي كما ورد في وثائق الجنيزة[٣].

قد عززت الحملات الصليبية من الدور الذي لعبه التجار الإيطاليون، وعلى

---

(١) هايد، تاريخ التجارة، ص١٠٩.

(٢) تجار الكارم: فئة من التجار الذين كان بيدهم تجارة البهار الوارد إلى مصر من الهند عن طريق ثغر اليمن، وكان معظمهم في الأصل من أهل بلاد الكانم الإسلامية، التي تقع بين بحر الغزال وبحيرة تشاد بالسودان الغربي، فنسبوا إلى أصلهم الجغرافي بعد تحريفه إلى "الكارم" ثم أطلق ذلك اللفظ على جميع من مارس تلك التجارة بمصر. انظر: المقريزي، كتاب السلوك لمعرفة أخبار الملوك، تحقيق/ محمد مصطفى زيادة، ج١، القاهرة، ١٩٣٩م، ص٨٩٩، حاشية (٣)، عطية القوصي، أضواء جديدة على تجارة الكارم، ص١٧. وعنهم أيضا انظر:

Ashtor, Studies on the Levantine Trade; The Karimi Merchants, Journal of the Royal Asiatic Society, London, 1956, PP. 45-56.

(٣) وثائق الجنيزة: هي وثائق خطية كثيرة وجدت في منطقة مصر القديمة وعرفت لعلماء الغرب في القرن التاسع عشر، ووزعت على مكتبات أوروبا وأمريكا وكانت هذه الوثائق محفوظة قبل اكتشافها، في حجرة خصصت للأوراق المهملة في معبد الفسطاط اليهودي ووجد بعض آخر من هذه الوثائق في جبانة البساتين القريبة من المعبد وأطلق على المجموعتين اسم وثائق جنيزة القاهرة. ويرجع تاريخ معظم هذه الوثائق، التي تتكون في غالبيتها من خطابات متبادلة بين اليهود وذويهم، إلى الفترة ما بين القرنين الرابع والسابع الهجريين وقليل منها يرجع إلى فترة متقدمة من القرن الرابع الهجري. ويقدر عدد الأوراق التي كانت في هذه الجنيزة بما يزيد عن الربع مليون ورقة معظمها قطع من كتب عبرية وقد كتب غالبية هذه الأوراق باللغة العربية بالحروف العبرية وهي تعكس لنا الحالة الاجتماعية والاقتصادية لبلدان البحر المتوسط والشرق في تلك الفترة. عن ذلك انظر: عطية القوصي، أضواء جديدة على تجار الكارم، ص٣٣، حاشية(١).

رأسهم البنادقة، حيث حملت سفنهم متاجر الشرقين لتصل بهما إلى أسواق أوروبا بما فيها أسواق شامبني والفلاندرز.

يتضح لنا مما سبق أن الأسواق الأوروبية شهدت تنوعا كبيرا في أنواع المتاجر التي تخصصت فيها، حيث تواجد بداخلها كافة المتاجر التي تميزت بها المنطقة المقام فيها السوق إلى جانب معظم متاجر شمال وجنوب أوروبا ومتاجر الشرق كذلك، وذلك نظرا لموقعها المتميز مما حقق لها مكانة تجارية كبيرة آنذاك.